قصص

ليف تولستوي

السيّد والخادم

فريق
متميزون
E-BOOK

ترجمة: صياح الجهيم

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

السيّد والخادِم

تولستوي

ترجمة: صياح الجهيم

-1-

كان ذلك في عيد القديس نيقولا الشتوي ([1]) الذي كان عيد الخورنية، ولم يكن بوسع فاسيلي ([2]) اندريتش بريكونوف، وهو تاجر الجمعية الثانية ([3])، أن يتغيّب: كان عليه أن يكون في الكنيسة - كان وكيل أملاك الكنيسة - وكان عليه أيضاً أن يستقبل في بيته الأهل والأصدقاء وأن يُولم لهم. لكن عندما غادره آخرُ ضيوفه، أخذ من فوره يتهيأ للسفر: كان يستعدّ للسفر إلى منزل ملاّكٍ في الجوار ليشتري منه غابةً ساوم عليها منذ زمن طويل.

كان فاسيلي اندريتش يستعجل، لأنه كان يخشى كثيراً أن يأتي تجارُ المدينة المجاورة لينتزعوا منه هذه الصفقة الرابحة. ولم يكن ملاّكُ الغابة الشاب يطلب بالغابة سوى عشرة آلاف روبل، لهذا السبب الوحيد وهو أن فاسيلي اندريتش يعرض عليه سبعة آلاف ولم تكن هذه الآلاف السبعة تمثّل، سوى ثلث القيمة الحقيقية للغابة. وربما كان سيُفلح أيضاً في الحصول على شيء من التخفيض، لأن الغابة كانت في منطقته، وكان من المتفق عليه بين تجار المنطقة، أن أحداً لا يجوز له أن يرفع الأسعار في المنطقة المخصّصة للجار، لكنه علم أن تُجار الخشب في العاصمة كانوا يستعدون للمجيء، كي يساوموا على غابة غوريا تشكينو. فصمّم إذن على السفر، في الحال، وأن يعقد الصفقة مع الملاّك.

وهكذا، ما إن انتهى العيدُ حتى تناول من صندوقه سبعئمة روبل، وأضاف إليها ألفين وثلاثمئة روبل من صندوق الكنيسة الذي كان في حوزته، ليكون معه ما مجموعُه ثلاثة آلاف روبل، وعدّ بعناية هذا المال، ثم طواه في محفظته واستعدَّ للسفر.

وبادر خادمُه في المزرعة، نيكيتا، وهو الوحيد بين خُدّام فاسيلي اندريتش الذي لم يسكر هذا اليوم، إلى ربط الجواد بالعربة.

لم يسكر «نيكيتا» في هذا اليوم لأنه كان سكيراً باع من أجل الشراب حذاءه وثيابه الجديدة، فعاهَدَ نفسه بعد ذلك ألاّ يشرب؛ والواقع أنه لم يشرب منذ شهرين؟ ولقد قاوم إغراءَ يوميْ العيد هذين اللذين كان ماءُ الحياة يتدفق فيهما من حوله.

كان نيكيتا ابن خمسين عاماً، وهو فلاح من قرية مجاورة قضى معظم حياته عاملاً في بيوت الآخرين وأراضيهم. وكان الناسُ يقولون عنه: «هذا ليس ملاَّكاً». وكانوا يقدّرونه لنشاطه في العمل، ولمهارته، ولقوته، ولاسيما لطيبه، ولطبعه الأنيس؛ لكنه لم يكن يستقرّ طويلاً في عمله، لأنه كان يأخذ في الشراب مرتين أو أكثر في العام، وعندئذٍ لم يكن يتخلّى فقط عن كل ما

يملكه ليشرب. لكنه كان يغدو محباً للخصام والصخب. وقد طرده فاسيلي اندريتش هو أيضاً، أكثر من مرة؛ لكنه كان يعيده مع ذلك، بسبب استقامته ورفقه بالحيوانات، وقبل كل شيء بسبب قلة مطالبه: لم يكن فاسيلي اندريتش يدفع لنيكيتا ثمانين روبلاً، وهي الأجر العادي لمثل هذا العامل، بل أربعين روبلاً، تُدفَع له بشكل دفعاتٍ على الحساب، وفي معظم الوقت بشكل سلع يقدّمها له حانوت فاسيلي اندريتش بأثمانٍ مرتفعة جدّاً.

وكانت «مارفا» زوجة نيكيتا ربة منزل رشيقة وحاذقة؛ وكانت جميلةً فيما مضى؛ وكانت تعمل في المنزل مع ابنها وبنتيها. لم تكن تصر على أن يكون نيكيتا معهم، لأنها إن كانت تفعل بزوجها ما تشاء عندما لا يشرب، فإنها كانت تخشاه كما تخشى النار عندما يسكر. لقد سكر ذات يوم في البيت، ولعله أراد أن ينتقم لخضوعه، فحطّم صندوق زوجته، واستولى على أجمل حلاها، وتناول فأسه ومزق به، على قُرمة شجرة، جميع فساتينها وجُببها.

كان كل المال الذي يكسبه «نيكيتا» يُسلّم مباشرةً إلى زوجته، ولم يكن يحتج قَطّ. وهكذا كان هذه المرة أيضاً: فقبل العيد بيومين، جاءت «مارفا» إلى حانوت فاسيلي وأخذت طحيناً أبيض وشاياً وسكراً، ونصف زجاجةٍ من ماء الحياة. كل ذلك بثلاثة روبلات، كما أخذت خمسة روبلات نقداً. فشكرت فاسيلي اندريتش على ذلك كله، وكأنه أنعمَ عليها نعمةً عظيمة؛ فلقد كان نيكيتا مديناً له بعشرين روبلاً، إذا حاسبه بأدنى الأسعار.

كان فاسيلي اندريتش يقول لنيكيتا:

- لم نبرم العقد بعد، أليس كذلك؟ إن كنتَ بحاجة إلى شيء فخذْه، وستدفع ثمنهُ عملاً. الخدمة عندي ليست كالخدمة عند الآخرين الذي يؤجلون الدفع ويلجؤون إلى الحسميّات. كان فاسيلي اندريتش مقتنعاً، وهو يتكلّم هذا الكلام، اقتناعاً صادقاً بأنه مُنعم على نيكيتا: فلقد كانت قدرتُه على الإقناع عظيمةً، وكان جميعُ التابعين له، بدءاً من نيكيتا، يثبّتون فيه هذه القناعةَ بأنه لا يخدع الناس بل يغمرهم بنعمه.

كان نيكيتا يجيب، وهو يعلم حقّ العلم أن فاسيلي اندريتش يخدعه، ويحسّ في الوقت نفسه أنْ لا فائدة من توضيح حساباته معه، وأن عليه أن يبقى هنا مادام لم يجد مكاناً آخر، وأن يأخذ ما يُعطيه إياه:

- نعم، أدركُ ذلك، أدرك ذلك جيداً. وأنا أعتقد أنني أعمل، وأبذل وسعي، وكأنني أعمل لأبي.

الآن، بعد أن أُمِر نيكيتا بربط الجواد إلى العربة، مضى بمرحٍ، كعادته دائماً، مفعماً بحسن النية، نحو الحظيرة، بخطا خفيفة ورشيقة تعوّدها، مع أنه

يمشي كالبطة وقدماه متّجهتان إلى الداخل. رفع من المسمار اللجامَ الثقيل الذي تحف به الشرّاباتُ، فابتعث الرنين من سلاسل شكيمة اللجام، ودلف إلى الاصطبل الذي رُبط فيه الجواد الذي أمر فاسيلي اندريتش بأخذه.

قال نيكيتا ردّاً على الصهيل الذي استقبله به مُرحّباً الحصانُ الكميتُ المتوسط الجسم، المحكم البنية، ذو الكفل الزلق، والذي كان وحده في الإصطبل:

- هيّا! هيّا! لا تستعجلْ. انتظر حتى أسقيكَ أولاً.

كان يكلّم الحصان كما يُكلِّم الناس تماماً. وبعد أن مسح بطرف سترته ظهر الحصان، وهو ظهر سمين، محزّز في وسطه، أجرد ومغبر، أدخل رأس الحصان الفتيَّ والجميلَ في اللجام، وحرّر أذنيه وناصيته، واقتاده كي يسقيه.

ما إن خرج من الإصطبل المليء بالزبل، بِخُطاً حذرة حتى أخذ الكميتُ يثب ويدور على نفسه، متظاهراً بأنه سيَلْبط نيكيتا الذي كان يصحبه وهو يركض إلى البئر. وكان يقول له:

- إلعبْ قليلاً لأرى، إلعبْ قليلاً، يا نذل!

كان نيكيتا يقول ذلك وهو يعلم جيداً كم كان الكميتُ حذراً وهو يدفع بقائمته الخلفية، لا ليرفسه، بل لكي يلامس فقط فرويّته الملطّخة بالشحم، على سبيل اللعب، وهي عادة كان يحبها نيكيتا كثيراً من الحصان.

بعد أن إرتوى الحصان من الماء المتجلّد تنفّس، وحرّك شفتيه الجامدتين، المبللتين اللتين كانت تتساقط منهما في الحوض قطرات شفافة؛ ثم أخلد إلى السكون وكأنه مستغرق في أفكاره، وفجأة حمحم بصخب.

قال نيكيتا مفسّراً سلوكه للكميت بجدٍّ بالغ وبالتفصيل:

- إرتويتَ، لا بأس! طيّب، لا تطلبْ ماءً بعدُ.

ورجع وهو يجري نحو الحظيرة جاراً بالعنان الحصانَ الفتيَّ الممتلئ فرحاً، الذي كان يُكدف مالئاً الفناء بالضوضاء.

كان جميعُ الخدم غائبين؛ ولم يكن في الفناء سوى رجلٍ غريب هو زوج الطاهية الذي جاء للعيد.

قال له نيكيتا:

- اذهبْ واسأله، يا عزيزي، بأية زلاّجة يجب أن أربط الحصان: الكبيرة أم الصغيرة.

دخل زوجُ الطاهية المنزل ذا السقف الحديدي، المبنيّ على قواعد عالية، وما لبث أن خرج حاملاً الأمر بربط الحصان بالزلاجة الصغيرة. في أثناء ذلك كان نيكيتا قد وضع إكليل الحصان وثبّت المقعد الخشبي المحفوف بالمسامير. واتّجه نحو الزلاجتين في الحظيرة. وهو يحمل بيد الطوق الخفيف المدهون, ويجر بالأخرى الحصان. قال وهو يُدخل في عريش العربة الحيوان الذكي الذي كان يتظاهر طوال الوقت بأنه يُريد عضّه:

- حسناً! فلنربطه إذنْ إلى الزلاّجة الصغيرة.

ولما انتهى كل شيء ولم يبقَ سوى تثبيت المقود، طلب نيكيتا إلى زوج الطاهية أن يأتيه بحزمة قشٍ من المخزن وبالجلّ كان نيكيتا يقول وهو يكدّس حزمة قشّ الشوفان المدروسة حديثاً والتي حملها إليه زوجُ الطاهية:

- مشت الحالُ هكذا! هيّا، هيّا، لا تتنفسْ! والآن سنمدّ الجنفاصة، وفوق ذلك الجلّ؛ وهكذا يصبح الجلوس مريحاً.

كان يقول ذلك ويفعل كما يقول، طاوياً الجل تحت القش المكدس حول المقعد.

وقال نيكيتا لزوج الطاهية:

- ها قد انتهينا! شكراً، يا عزيزي. العملُ باثنين أسرع.

وبعد أن فكَّ نيكيتا المقودين الجلديين اللذين ينتهيان بحلقة، قفز إلى حافة الزحّافة، ومضى، عبر الفناء المغطّى بالزبل المتجمّد، ومن باب العربات، ساق الحصان السهل القياد الذي لم يكن يطلب سوى الحبّ.

هتف بصوتٍ نحيل صبيٌّ ابن سبع سنوات، يرتدي فرويّة سوداء، وقبّعة من الفرو، وينتعل حذاءً جديداً من اللبّاد الأبيض وقد خرج من البيت وهو يركض، ويزرّر فرويته القصيرة على عجل، هتف نيكيتا طالباً:

- عم نيكيتا! أيها العم العزيز! أيها العم العزيز! خذْني معك.

قال نيكيتا وهو يوقف الحصان:

- هيّا، أسرع، يا حمامتي الصغيرة!

وأصعد إلى الزلاجة الصبيَّ ابن سيّده، الذي استضاء وجهُه الشاحبُ الهزيلُ فرحاً.

تجاوزت الساعةُ الثانية. وكان الجوُّ بارداً وضبابياً؛ وكان ثمة ريحٌ. كان نصفُ السماء مغطّى بغمامة منخفضة وقاتمة. وكان الهواءُ في الفناء هادئاً، أما في

الشارع فكانت الريح تهب بقوّة وتكنس الثلج المتكوّم على سطح الحظيرة المجاورة وتثير زوابع في الزاوية، قرب الحمامات.

ما كاد نيكيتا يتوقف أمام درج المدخل، بعد مروره من باب العربات، حتى خرج فاسيلي اندريتش من البهو، والسيجارة بين شفتيه، وهو يرتدي فرويّةً من جلد الخروف المشدودة بقوة تحت الخصر بزنارٍ؛ وتحت جزمته اللبادية المغطّاة بالجلد أخذت طبقة الثلج المتصلّبة على درج المدخل تطقطق. توقّف وسحب آخر سحبة من الدخان، ورمى بعقب السيجارة، وداسها بقدمه، ثم لفظ الدخان من خلال شاربيه، وهو يفحص الحصان بطرف عينه، ويُصلح، من الجانبين المتورّدين لوجهه الذي حُلق كله ما عدا شاربيه، قبّة فرويته حتى لا يبلّل تنفّسُه الفرو.

قال وهو يرى ابنه في الزلاّجة:

- يا لهذا العفريت!

كان فاسيلي اندريتش قد اهتاج من ماء الحياة الذي شربه مع أصدقائه، ولذلك كان يُحس بالرضا، أكثر من عادته، عن كل ما يخصّه وما يفعله. وقد أحدث له مرأى ابنه الذي كان يدعوه في نفسه وارثه، سروراً عظيماً الآن؛ أخذ يتفرّس فيه، مغضّناً جفنيه، كاشفاً عن أسنانه الطويلة.

وقفت زوجةَ فاسيلي اندريتش شاحبةً وهزيلة. خلفه في البهو، وقد لُفَّ رأسُها وكتفاها بشال صوفي لا يُري سوى عينيها. ثم قالت وهي تتقدّم بخجل:

- في الحقيقة، من الأفضل لك أن تصطحب نيكيتا.

لم يردّ فاسيلي اندريتش على هذه الكلمات التي ساءَتْه بغير شك. فتجهّم وجهُه وبصق.

وأردفت زوجتُه بلهجة متأوّهة:

- فأنت تحمل مالاً؛ ثم إن الطقس قد يسوء، بالفعل. أؤكد لك ذلك.

قال فاسيلي اندريتش وهو يمدّ شفتيه، وهي حركةٌ كانت خاصة به عندما يكلّم البائعين أو المشترين، وهو يوقّع كل مقطع من مقاطع كلماته:

- ما حاجتي إلى الدليل؟ ألستُ أعرف الطريق؟

كرّرت المرأةُ وهي تردّ شالها على كتفيها:

- أرجوك، خذْه معك، بحقّ السماء!

- إنها تلزق مثل الفار في اليدين! كيف يمكنني أخذه معي؟

قال نيكيتا بمرح:

- أنا مستعد، يا فاسيلي اندريتش، ما قولُكَ؟

وأضاف هو يلتفت إلى سيّدته:

- على شرط أن تُطعَم الجيادُ في غيبتي.

قالت المرأة:

- سأتولّى ذلك، يا صديقي، نيكيتا. وسوف آمرُ سيميون بذلك.

سأل نيكيتا:

- ما رأيُك، يا فاسيلي اندريتش. أأسافر؟

قال فاسيلي اندريتش، وهو يبتسم من جديد، ويشير بطرف عينه إلى فرويّة نيكيتا القصيرة الملطّخة بالدهن، المتنسّلة الحواشي، والممزّقة في ظهرها وتحت كميّها، والتي لاشك أنها ذاقت الأمرّين:

- لا بدّ من إرضاء العجوز! لكن إذا كنتَ ستجيء معي فإلبس شيئاً مُدفئاً.

إلتفتَ نيكيتا نحو الفناء حيث كان يقف زوجُ الطاهية وناداه:

- هيه! يا عزيزي! تعال قليلاً! امسك بالحصان!

صاح بصوتٍ ثاقب الصبي وهو يخرج من جيبيه يديه الصغيرتين المحمرّتين من البرد:

- أنا! أنا!

وأمسك بالمقود المتجلد.

صرخ فاسيلي اندريتش، هازئاً من نيكيتا:

- لكن، لا تُسرف في التزيّن، أسرعْ!

قال نيكيتا:

- لن أتوقّف، يا فاسيلي اندريتش، يا وليّ نعمتي.

وجرى نحو الكوخ الخشبي المخصص للخدم.

قال نيكيتا وهو يندفع إلى الكوخ ويتناول زنّاره المعلّق بمسمار:

- مارفا، يا عزيزتي، أعطيني بسرعة قفطاني الذي يُجفّف قرب المدفأة، فأنا ذاهبٌ مع المعلم.

كانت الطاهية التي أغفتْ بعد الغداء تُعدّ السماور لزوجها، فاستقبلت نيكيتا بفرح، وسَرَتْ إليها عدوى سرعته، فرفعت بخفّةٍ، عن المدفأة، القفطانَ القديم البالي الذي وُضع ليجفّ، وبسطتْه وأخذت تنفضه. قال نيكيتا لها:

- سيخلو لك الجوُّ الآن لتتسلّي مع زوجك!

كان نيكيتا، إذا وجد نفسه وحيداً مع أيّ كان، يقول شيئاً، تأدباً وتلطّفاً.

وبعد أن لفّ زناره القصير الملتوي على خصره عصب بطنه بأقصى قوته فغار وكان من قبلُ هضيماً.

وقال بعد ذلك، موجّهاً الكلام لا للطاهية بل للزنار الذي ربط طرفيه:

- مشت الحالُ، هكذا. لن تنحلّ بعد ذلك.

وإذ رفع كتفيه وخفضهما لتظل ذراعاه حرّتين، لبس قفطانه، مادّاً ظهره أيضاً ليحافظ على حرية حركاته وتناول قفّازه عن الأرض.

- مشت الحالُ!

قالت الطاهية:

- لا بدّ لك من تغيير حذائك، يا نيكيتا؛ فهو في حالة سيئة.

توقف نيكيتا وكأنه تذكّر شيئاً:

- نعم... سيكون ذلك ضرورياً... الأمر مقبولٌ هكذا، فلن نمضي بعيداً.

وخرج وهو يركض.

قالت سيّدة المنزل عندما دنا من الزلاّجة:

- ألا تبرد، يا نيكيتا؟

أجاب نيكيتا وهو يرفع القش ليغطي به قدميه، ويدسّ السوط تحته، مع أن الكميت، وهو الحصان السهل القياد، لا يحتاج إليه.

كان فاسيلي اندريتش قد استقرّ في الزلاجة؛ وكان ظهره العريض تحت فرويّته يشغل المقعد كله. ضم المقودين وأطلق الحصان. وثب نيكيتا إلى الزلاّجة وهي تمشي، وقرفص في المقدّمة، مدلّياً ساقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

--2

تحرّكت الزلاّجة وهي تصرّ صريراً خفيفاً من المزلجين، ودلف الجواد القوي إلى الطريق المغطّاة بطبقة من الثلج المتصلّب. صاح فاسيلي اندريتش وهو يتأمل بجلاءٍ وارثه الذي تعلّق بمؤخّرة الزلاّجة.

- ماذا تفعل هنا؟ ناولْني السوط، يا نيكيتا! انتظر قليلاً! امضِ إلى أمك!

وثب الصبي إلى الأرض.

زاد الكميتُ في سرعته وانتقل من الهملجة إلى الخبّ.

لم تكن قرية «كريستي» التي يقطنها فاسيلي اندريتش تحتوي على أكثر من ستة منازل. وما إن اجتازا آخر منزلٍ خشبي، منزل الحداد، حتى لاحظا أن الريح كانت أقوى بكثير ممّا تصورّا. فلَم يكادا يريان الطريق.

كانت آثار المزلجين لا تلبث أن تتغطّى بالثلج الذي تطرده الريح، ولم يكن من الممكن تمييز الطريق لولا أنها كانت أعلى من السهل الذي تقطعه. وكانت زوابع من الثلج تتراكض على الحقول ولم يعودا يتبيّنان الخط الذي تلتقي فيه السماء والأرض. ولم تكن غابة «تيليانينو» التي كانت تُميّز جيداً، تُبين عن ذاتها إلا للحظات مثل بقعة مسودّة من خلال الثلج المتطاير كالغبار. وكانت الريح تهب من اليسار، مُلقيةً إلى اليمين ناصية الكميت وذيله الكثيف الشعر، المشدود بعقدة ضخمة. وكانت ياقة نيكيتا الطويلة، وهو يجلس مقابل الريح، تلتصق بأنفه وخدّه.

قال فاسيلي اندريتش مفتخراً بحصانه:

- ليس بإمكانه أن يجري بكل سرعته لكثرة الثلج. ذهبت مرة إلى «باوتشينو» وهو معي، فأوصلني إليها في نصف ساعة.

قال نيكيتا الذي لم يسمع بسبب ياقته.

- ماذا؟

فصاح فاسيلي اندريتش:

- قلت لك إنه أوصلني إلى «باوتشينو» في نصف ساعة.

قال نيكيتا:

- لا مَراء في أنه جواد نشيط.

صمتا لحظةً، لكن فاسيلي اندريتش كان يشتهي أن يتحدّث، فسأله بصوتٍ عالٍ:

- وهل ستشتري حصاناً في الربيع؟

أجاب نيكيتا:

- لا مفر من ذلك.

وخفض ياقة قفطانه ومال على فاسيلي اندريتش:

- لقد كبر الولد، وآن الأوان لكي يحرث بنفسه.

صاح فاسيلي اندريتش وقد أحسّ بالإثارة، وكان بسبب ذلك مستعداً للتدليس، وهو الشاغل الذي كان يفضله على أي شاغل آخر والذي كان يستغرق ذكاءه كله:

- حسناً! خذْ إذن «المعروق». ولن أبيعك إياه بثمن غالٍ.

أجاب نيكيتا الذي كان يعلم أن المعروق الذي يريد أن يبيعه إياه فاسيلي اندريتش لا يساوي على الأكثر سبعة روبلات، وأن فاسيلي اندريتش سيحسبه عليه بخمسة وعشرين روبلاً، وبعد ذلك لن يحصل على فلسٍ واحد طوال ستة أشهر:

- لعلك تعطيني نحو خمسة عشر روبلاً، وسأشتري حصاناً من سوق الخيول.

صاح فاسيلي اندريتش بنفس الصوت الذي كان يصطنعه ليغشّ زُبُنَه:

- إنه حصان نشيط. وأنا أحبّ لك الخير كما أحبه لنفسي. على ذمتي! إن «بريكونوف» لم يسئ إلى أحد قَطُّ. بل أنا أفضِّل أن أخسر فيه. ليس الأمر عندي كما هو عند الآخرين. بالشرف إنه حصان نشيط حقّاً.

قال نيكيتا وهو يتنهد:

- كلامك صحيح.

وحين رأى فاسيلي اندريتش يصمت ردّ ياقته فغطّت وجهه وأذنه. تابعا هكذا طريقهما قرابة نصف ساعة صامتين وكان نيكيتا يحسّ بالريح على يده وذراعه حيث كانت فرويّته ممزّقة. فانكمش على نفسه ونفخ في ياقته التي غطت فمه، لكنه لم يحس بالبرد في جسمه.

سأله فاسيلي اندريتش:

- ما رأيك؟ هل نمر بـ «كاراميشيفو» أم نمضي على خط مستقيم؟

كان مرورهما بكاراميشيفو يقتضيهما أن يسلكا طريقاَ زاخراَ بالحياة، معلماَ بشواخص على الجانبين، لكنه أطول. وكانت الطريق اليمنى أقصر، لكنها أقل وضوحاً، فالشواخص كانت نادرة فيها أو مغطاة بالثلج.

فكّر نيكيتا قليلاً وقال:

- الطريق من «كاراميشيفو» أطول لكنها أفضل.

قال فاسيلي اندريتش الذي كان يود أن يسلك الطريق المستقيمة:

- لكننا إن ذهبنا مباشرةً لا يمكن أن نضل الطريق. يكفينا أن نقطع المسيل. وبعد المسيل الغابة.

أجاب نيكيتا:

- كما تشاء.

ورفع ياقته من جديد.

فعل فاسيلي اندريتش كما قال. فبعد نصف ساعة انعطف إلى اليسار حيث كان يضطرب في الريح غصنُ سنديان عليه أوراق يابسة.

بدءاً من هذا المنعطف، هبّت الريحُ معاكسة، وأخذ الثلج يتساقط. كان فاسيلي اندريتش يقود الزلاجة؛ كان يملأ وجنتيه بالهواء وينفخ على شاربيه. أما نيكيتا فكان يغفو.

مرّت عشر دقائق هكذا في صمت. وفجأة نطق فاسيلي اندريتش ببضع كلمات فسأله نيكيتا وهو يحدّق فيه:

- ماذا؟

لم يجب فاسيلي اندريتش. كان ينحني وينظر أمامه وخلفه. كان الحصان يسير الهوينا. وقد تجعّد شعرُه المبلّل بالعرق عند رقبته وبين ساقيه.

كرر نيكيتا:

- ماذا؟ ماذا جرى؟

قلّده فاسيلي اندريتش بهلجة غاضبة:

- ماذا؟ ماذا؟ لم يعد ها هنا شواخص. لقد ضللنا الطريق بالتأكيد.

قال نيكيتا وقد وثَب بخفّة من الزلاجة. وبعد أن سحب السوط من تحت القش، اتّجه إلى اليسار صوب الجهة التي كان جالساً فيها:

- انتظر قليلاً، سأعثِر على الطريق.

لم يكن الثلج وفيراً هذا العام، بحيث أنه استطاع أن يتقدّم بلا صعوبة؛ بيد أنه كان يغوص في بعض المواضع إلى ركبتيه. وما لبث أن امتلأت جزمته بالثلج. إن نيكيتا يجسّ الأرض بقدمه وبطرف سوطه، لكنه لم يتمكّن من العثور على الطريق.

سأل فاسيلي اندريتش عندما عاد نيكيتا إليه:

- ماذا وجدتَ؟

- لم أعثر على شيء في هذه الجهة؛ يجب أن أُفتشَ في الجهة الأخرى.

قال فاسيلي اندريتش:

- انظرْ قليلاً إلى تلك البقعة القاتمة أمامنا. اذهب وتطلّعْ إليها.

ذهب نيكيتا في الاتّجاه المشار إليه ودنا من البقعة السوداء؛ كانت حقلاً مُعرّىً بعثر الهواء ترابه، وصبغ به الثلج بالسواد. وبعد أن فتّش نيكيتا، في الجهة اليمنى أيضاً، نفّض نفسه ليزيل الثلج الذي غطّاه بنثاره، ونفّض بعد ذلك جزمته وصعد إلى الزلاّجة. وقال بهلجة جازمة:

- يجب أن نذهب إلى اليمين. فالريح كانت على يسارنا، وهي تلسعني الآن في منتصف وجهي.

وأردف آمراً:

- انعطف إلى اليمين.

أطاعه فاسيلي اندريتش وانعطف إلى اليمين. لكنه لم يعثر على الطريق. سارا على هذا المنوال؛ بعض الوقت ولم تسكن الريحُ ولا انقطع الثلج.

لاحظ نيكيتا فجأة وكأنه سُرَّ بما جرى:

- حسناً! لقد ضللنا الطريق، على ما يبدو، يا فاسيلي اندريتش.

ثم أضاف وهو يشير إلى السوق المسوّدة البارزة من تحت الثلج:

- ما هذا؟

أوقف فاسيلي اندريتش الحصان المبلّل بالعرق والذي كانت خاصرتاه تنبضان مع انفاسه اللاهثة، وقال:

- حقّاً! ما هذا؟

- هذا يعني أننا في حقول «زاخاروف»، وأننا ضللنا الطريق!

ردّ فاسيلي اندريتش:

- أنت تكذب!

أجاب نيكيتا:

- لا، لستُ أكذب. لقد قلتُ لك الحقيقة، يا فاسيلي اندريتش. علمتُ ذلك من صوت الزلاّجة: فنحن نجتاز حقلاً من البطاطا؛ وهذه على كل حالٍ، أكوام من الأوراق والسوق. نعم، هذا هو بعينه حقلُ مزرعة «زاخاروف».

قال فاسيلي اندريتش:

- هذه مشكلة حقّاً! ما العمل، الآن؟

- لنذهبْ على خط مستقيم أمامنا. هذا كل شيء. وسوف نصل إلى مكانٍ ما. إلى المزرعة أو إلى ملكيّة صاحبها.

أطاعه فاسيلي اندريتش ووجّه الحصانَ إلى حيث قال له نيكيتا. سارا هكذا زمناً طويلاً. كان يجتازان حيناً مراعي جرداء، وكان مزلجا الزلاّجة يطقطقان حينئذٍ على كدر الأرض المتجمّدة. وكانا حيناً آخر يقطعان أراضي حصيدة تُشاهَد فيها سوق يابسة بارزة من تحت الثلج، والريح تحرّكها. وفي بعض الأحيان، كانا يغوصان في الثلج العميق، المتفاوت البياض الذي لا يُميَّز شيءٌ فوقه.

كان الثلج يتساقط من الأعالي، وكان يرتفع أحياناً من الأرض بشكل زوابع. وكان الحصان متعباً من غير شكّ. كان شعرهُ المبلّل بالعرق يتجعّد ويتغطى بالجمد؛ كان يسير الهوينا فقط. وفجأة زلّت قدمه، وانزلق إلى حفرة أو مَنْقعٍ.

أراد فاسيلي أن يوقفه، لكن نيكيتا أخذ يصرخ:

- لماذا توقفه؟ يجب أن يخرج منها!

وصاح بالحصان وهو مرح، وقد وثَب من الزلاجة وغرق بدوره في الثلج:

- حا، دي! يا عزيزي! حا، دي! يا صاحبي!

أخذ الحصان عدّته للوثب، وبلغ بقفزة واحدة الردم المتصلب بسبب الجليد. كانا قد سقطا من غير شك، في حفرة.

سأله فاسيلي اندريتش:

- وأين نحن، يا ترى؟

أجاب نيكيتا:

- سنعلم ذلك. لِنتابعْ السير، وسوف نبلغ مكاناً ما.

قال فاسيلي اندريتش وهو يشير إلى كتلة سوداء كانت تُميَّز خلال الثلج:

- أليست هذه غابة «غوريا تشكينو»؟

قال نيكيتا:

- لِنذهبْ إليها. وسنرى حينئذٍ ما هذه الغابة.

رأى نيكيتا أن الريح تحمل من هذا الجانب أوراقاً جافةً من الخنشار فعلم أن هذا المكان ليس غابةً وإنما هو مكان مسكون؛ بيد أنه لم يشأ أن يقول ذلك. والواقع أنهما لم يكادا يسيران إلا قليلاً حتى تبيّنا ظلال الأشجار السوداء وسمعا صوتاً جديداً شاكيّاً. لقد صدق ظنُّ نيكيتا: لم يكن المكان غابةً بل صفّاً من نبت الخنشار ترتعش عليها هنا وهناك أوراق ميتة. كانت الخنشارات مزروعة بمحاذاة حفرةٍ قرب مستودع للحصيد.

وعندما بلغا الخنشارة التي كانت تبعث حفيفها كئيباً، رفع الحصان فجأة قائمتيه الأماميتين إلى ما فوق الزلاجة وتسلّق الردم وانعطف إلى اليسار. كان هذا هو الطريق.

قال نيكيتا:

- ها قد وصلنا؛ لكنّا لا نعلم إلى أين.

مضى الحصان دون تردّدٍ على الطريق المغطّاة بالثلج، ولم يقطعا أكثر من نحو مئة وعشرين ذراعاً حتى ارتسم أمامهما جدار مستودع للحصيد اختفى سقفه تحت الثلج السميك. وبعد أن دارا حول المستودع، ألفيا نفسيهما في مواجهة الريح وغرقا في كومة من الثلج. لكنهما تبيّنا أمامهما زقاقاً ضيقاً بين منزلين: لاشك أن الريح هي التي كومت هذا الثلج على الطريق، وينبغي أن يمرّا من خلاله. والواقع أنهما ما إن تغلّبا على هذه العقبة حتى دلفا إلى الزقاق.

وقرب أحد البيوت، كان الغسيل المتجمّد والمعلق بحبل يهتزّ بعنف أمام ريح الشمال: قميصان، أبيض وأحمر، ألبسة داخلية، عصائب للأرجل، وتنّورة. وكان القميص الأبيض، يضطرب بعنف محرّكاً كمَّيه.

قال نيكيتا وهو ينظر إلى القميصين:

- انظر إلى هذه الكسلانة التي لم تَكْوِ غسيلها للعيد؟ لكن لعلها مريضة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-3-

كان الهواء مايزال يهبّ عند مدخل القرية، وكانت الطريق تختفي تحت الثلج؛ لكنهما كلما تقدما ازداد الجوّ لطفاً ودفئاً وبهجةً. نبح كلب في فناء، ووقفت امرأة كانت تركض، وفرويّتها مُلقاة على رأسها، عند عتبة منزل خشبي لتتأمل الغريبين. ومن وسط القرية وافتْهما أغنياتُ جوقةٍ من الفتيات.

كان البرد والريح يبدوان أقل قسوة في القرية؛ كما بدا الثلج أقل وفرةً.

قال فاسيلي اندريتش:

- لكن هذه هي غريشكينو.

أجاب نيكيتا:

- صحيح ما قلتَ.

والواقع أنها كانت غريشكينو. فبعد أن انحرفا كثيراً إلى اليسار، وقطعا هكذا ثمانية فراسخ في اتجاه لم يكن على الاطلاق الاتجاه الذي ينبغي أن يسيرا فيه، وجدا نفسيهما مع ذلك أنهما اقتربا من هدفهما، لأن المسافة بين «غريشكينو» و«غوريا تشكينو» لا تزيد على خمسة فراسخ.

في مركز القرية، صادفا رجلاً مديد القامة يمشي في منتصف الطريق.

صاح هذا الرجل وهو يوقف الحصان:

- مَنْ القادم؟

وبعد أن تعرّف من فوره فاسيلي اندريتش أمسك بعريش العربة، وبلغ، وهو يتلمّس طريقه، الزلاجة التي جلس على حافتها.

كان هذا الرجل هو «إيساي» ([4])، وهو تاجر يعرفه جيداً فاسيلي اندريتش، كان سارق خيول مشهوراً في المنطقة كلها.

قال «إيساي»:

- آه! فاسيلي اندريتش، يا للمصادفة السعيدة! وأحسنّ نيكيتا بأنفاسه المشبعة بالخمر.

- نحن ذاهبان إلى «غوريا تشكينو»

- إيه! إيه! وجئتما إلى هنا! كان ينبغي لكما سلوك طريق «مالاكوفو».

قال فاسيلي اندريتش وهو يوقف حصانه:

- كان ينبغي لنا أن نفعل أشياء كثيرة! ما حيلتنا؟

قال «إيساي» وهو يتفحص الحصان:

- حصان رائع.

وبحركة معتادة شدّ عقدة الذيل التي انحلّت في الطريق.

- حسناً! هل تُمضون الليلة هنا؟

- لا، يا صاحبي، علينا أن نذهب.

- إن كان لا بدّ من ذلك فلا حيلة لي. لكن مَنْ هذا؟ آه! نيكيتا ستيبانيتش.

أجاب نيكيتا:

- ومَنْ يكون إذنْ؟ بشرط ألا نضلّ الطريق، يا صاحبي.

- كيف يمكن أن تضلَّا الطريق؟ انعطفا وسيرا في الشارع على طوله، وعندما تخرجان من القرية تابعا سيركما على استقامة واحدة، ولا تنحرفا إلى اليسار، فإذا بلغتما الطريقَ الرئيسيّة خذا حينئذٍ يمينكما.

سأل نيكيتا:

- أين ينبغي أن ننعطف إلى اليمين؟

- ستشاهدان دغلاً، وفي مواجهة الدغل شاخصة هي غصن سنديان كبير مغطى بالأوراق. هناك تنعطفا.

دار فاسيلي اندريتش بحصانه نصف دورة، ومضيا في الاتجاه المشار إليه.

صاح «إيساي» بهما:

- لعلكما تبيتان هنا، مع ذلك.

لكن فاسيلي اندريتش لم يردّ عليه وحثّ الحصان: بدا له أن من السهل قطع خمسة فراسخ، فرسخان منهما في الغابة، على طريق مستوية، ولاسيّما أن الريح بدتْ أقل عنفاً وأن الثلج انقطع.

انقلبا راجعين من الشارع الذي سلكاه والذي كانت تنقّطه بالسواد، هنا وهناك أكوامٌ من الزبل الطري؛ وتجاوزا الفناء الذي عُلِّق فيه الغسيلُ - لم يكن القميصُ الأبيض معلّقاً إلا بأحد كمّيه - ومرّا من جديد أمام الخنشارة التي كان ينبعث منها حفيف حزين، ثم بلغا السهل. لم تهدأ الريح؛ على العكس، كان يبدو أن هبوبها أشدّ؛ واختفت الطريقُ تحت الثلج الذي غطَاها، وتعذّرت معرفة

الاتجاه الصحيح إلا من الشواخص. لكن كان تمييز الشواخص شديد الصعوبة بسبب الريح المعاكسة.

كان فاسيلي اندريتش يطرف بعينيه، وهو ينحني إلى اليمين وإلى الشمال محاولاً أن يتبيّن الشواخص، لكنه كان، على الإجمال، يترك الحصان وشأنه، معتمداً عليه أكثر مما يعتمد على عينيه. والواقع أن الحصان لم يكن يخطئ؛ كان يسير منعطفاً تارةً إلى اليمين وتارةً أخرى إلى الشمال، مُتابعاً تعرّجات الطريق، حيث كان يحسّ بالأرض الصلبة تحت قوائمه. بحيث أنهما ظلّا يتبينان الشواخص إلى اليمين حيناً وإلى اليسار حيناً آخر، بالرغم من الريح التي اشتدت، والثلج الذي تعاظم سقوطه.

سارا هكذا نحو عشر دقائق وإذا بهما يريان أمامهما مباشرةً كتلةً سوداء تتقدّم عبر شبكة الثلج المنحرفة التي يطردها الريح. كان ذلك أناساً يسيرون في الاتجاه نفسه. أدركهم الكميتُ وصدم برجله صندوق الزلاّجة.

صاح هؤلاء الناسُ من الزلاّجة:

- انعطفا!... آه!... آه!... تقدّمانا!...

تجاوزهم فاسيلي اندريتش، كان في الزلاّجة ثلاثة رجال وامرأة. كان واضحاً أنهم يعودون إلى بيوتهم بعد أن مجنوا في المدينة. كان أحد الفلاحين يسوط بغصن جاف كفل الحصان الذي انتثر عليه الثلجُ الناعم. وكان الآخران يصيحان وهما يحرّكان أذرعهما. وجمدت المرأة في موضعها وانكمشت على نفسها في صدر الزلاجة، وقد لفّت نفسها بفرويتها لفّاً شديداً، وغطّاها الثلج.

صاح بهم فاسيلي اندريتش:

- من أين أنتم؟

زعق بكل قواه أحد الفلاحين:

- آ.... آ.... آ....

لكن لم يتمكن من تمييز كلماته.

صرخ الفلاح الآخر وهو يسوط بكل قوته حصانه المسكين:

- تقدّمْ!... لا تدعهما يمرّان!

- لا شك أنهم يعودون من لهوهم.

- تقدّم تقدّمْ! سيومكا ([5])! اسبقْهما... إلى الأمام!

اصطدمت الزلاجتان، وكادتا تعلقان إحدهما بالأخرى وافترقتا، وظلت زلاّجةُ الفلاحين في الخلف.

بذل الحصان الأشعر، البطين، المغطّى بالثلج، آخر قواه، لاهثاً بمشقة تحت طوقه المنخفض، جاهداً بغير جدوى في الخلاص من الضربات التي تنهال عليه، متقدّماً كيفما اتّفق له، غائصاً بقوائمه القصيرة في الثلج العميق. أما وجهُه الفتيّ بشفته السفلى المتقدمة كشفة السمك، ومنخريه المتّسعين، وأذنيه المبسوطتين من الخوف فقد بقي، بضع لحظات، على مستوى كتف نيكيتا، ثم تراجع شيئاً فشيئاً إلى الوراء.

قال نيكيتا:

- هذا ما تفعله الخمر! سيقتلون حصانهم المسكين. متوحشون حقيقيون.

وسُمع، طوال بضع دقائق، لهاث الحيوان المسكين المُنهك، وصرخاتُ السكارى. ثم سكتَ اللهاثُ وانطفأت الصرخات أيضاً شيئاً فشيئاً. ثم لم يُسمع بعد ذلك سوى صفير الريح، وطقطقات خفيفة للمزلجين، بين الحين والحين، على الأرض التي عرَّتْها الريح هنا وهناك.

أبهج هذا اللقاءُ فاسيلي اندريتش، وزاد من ثقته، وحثّ الجواد، دون أن يهتم بالشواخص، معتمداً على تحسّس الحصان.

لم يكن على نيكيتا أن يفعل شيئاً، وكان من عادته في مثل هذه الحالة، أن يغفو معوّضاً بغفوته تعبه. وفجأة وقف الحصان، وكاد نيكيتا يسقط على وجهه.

قال فاسيلي اندريتش:

- وهذه مشكلة!

- وما هي؟

- اختفت الشواخصُ. ولا شك أننا ضللنا الطريق مرةً أخرى.

رد نيكيتا بإيجاز:

- إن كنا ضللناها فيجب أن نهتدي إليها مرة أخرى.

نهض نيكيتا وأخذ يمشي على الثلج مرة أخرى بخطا خفيفة، وقدماه متّجهتان إلى الداخل.

مشى طويلاً، متواريّاً حيناً في الضباب، عائداً إلى الظهور حيناً آخر فجأة ليختفي من جديد... وأخيراً عاد إلى الزلاجة، وقال وهو يصعد إليها:

- لا طريق في هذه الجهة، ربّما كانت في مكانٍ ما أمامنا.

بدأ الظلام يحلّ. ولم يزد هبوبُ الريح عنفاً لكنه لم يتناقص أيضاً.

سأل فاسيلي اندريتش:

- أين نذهب الآن؟

- يجب أن نترك الحصان على هواه. سيخرجنا من هنا. أعطني المقود.

أعطاه فاسيلي اندريتش المقود بسرور ولاسيّما أنه أخذ يحس بالبرد في يديه بالرغم من قفازيه المبطنين بالفرو.

تناول نيكيتا المقود واكتفى بأن أمسكه دون أن يجذبه، مفتخراً بذكاء حصانه المفضّل. وبالفعل، نصب الحيوان الرائع أذنه هذه مرةً، وأذنه تلك مرة أخرى، وأخذ ينعطف.

قال نيكيتا:

- لا ينقصه سوى الكلام. انظر إلى ما يفعله! هيّا، هيّا، بخفّة! هكذا، هكذا!

صارت الريحُ في ظهريهما. فخفّ البردُ عليهما.

قال نيكيتا وهو ممتلئ إعجاباً بالحصان:

- إنه لحيوان ذكي! الحصان الكرخيزي الصغير قوي، لكنه أحمق. أما هذا فانظر ما يفعله بأذنيه. لا حاجة إلى التلغراف. فهو يسمع كل شيء من دائرةٍ بعدُها فرسخ.

والواقع أنه لم تمضِ نصفُ ساعة حتى تبيّنا أمامهما شيئاً أسود، غابةً أو قرية، وشاهدا على اليمين الشواخص مرة أخرى. لقد عثرا، من غير شك، على الطريق.

قال فاسيلي اندريتش:

- لكنا عُدنا إلى غريشكينو!

بالفعل لقد شاهدا إلى يسارهما نفس المستودع المغطّى بالثلج؛ وشاهدا بعد ذلك الغسيل المتجمّد؛ شاهدا القميصين والألبسة الداخلية وهما لا يزالان يضطربان بشدة أمام ريح الشمال.

دلفا مرةً أخرى إلى الزقاق، وغدا الطقسُ مرةً أخرى أكثر لطفاً ودفئاً وبهجةً؛ ورأيا مرة أخرى الطريقَ المغطّاة بالزبل، وسمعا مرة أخرى أصواتاً وأغنيات، ونباح الكلاب. هبط الظلام واتّقدت أنوار في المنازل الخشبية.

أوَقفَ فاسيلي اندريتش الحصان أمام درج مدخل منزل كبير غُطيت جدرانُه بالقرميد.

دنا نيكيتا من النافذة المضاءة التي في ضوئها كانت تتطاير ندفُ الثلج المتلألئة، وقرع النافذة بمقبض سوطه.

ردّ صوت على قرع نيكيتا:

- مَنْ الطارق؟

أجاب نيكيتا:

- «بريكونوف» من «كريستي»، يا صاحبي. هلاّ خرجتَ لحظةً.

ابتعدا عن النافذة، وفي ظرف دقيقتين سُمع بابُ المدخل يُفتح بجهد، ثم صرَّ المزلاج، وظهر فلاح عجوز ممسكاً بالباب الخارجي الذي كانت الريح تدفعه. كان الفلاحُ مديد القامة، أشهب اللحية، عليه قميص أبيض جديد وفرويّة قصيرة، وكان يتبعه فتى بقميص أحمر وجزمة جلدية. سأل العجوز:

- أهذا أنت حقّاً، يا فاسيلي اندريتش؟

قال فاسيلي اندريتش:

- هذا أنا بالذات، لقد ضللنا الطريق، كما ترى كنا نريد أن نذهب إلى غوريا تشكينو فإذا بنا في بيتك. ذهبنا مرة ثانية وضللنا الطريق.

قال العجوز:

- انتظر قليلاً!

ثم أمر الفتى ذا القميص الأحمر:

- بيتروشكا اذهبْ وافتحْ باب العربات.

رد الفتى بصوت بهيج:

- حاضر.

ومضى راكضاً.

أعلن فاسيلي اندريتش:

- لكننا لن نأوي إلى بيتك، أيها الأخ.

- إلى أين ستذهبان؟ الوقت ليل. ابقيا.

- أتمنّى ذلك. لكن لا بدّ من الذهاب. الأعمال... غير ممكن.

- تَدفّأا قليلاً، على الأقل؛ لقد وصلتما في وقت السماور بالذات.

أجاب فاسيلي اندريتش:

- أما الشاي فهو مقبول. لن تزداد العتمة؛ وعندما يطلع القمر ستكون رؤيتنا أفضل. ما رأيكَ، يا نيكيتا، هل ندخل لنتدفّأ؟

قال نيكيتا الذي برد كثيراً والذي كان يرغب كثيراً في تدفئة أطرافه المتجمّدة:

- ولمَ لا؟ هذا الطلبُ لا يُرفض.

دخل فاسيلي اندريتش الكوخ الخشبي مع العجوز. وأَدخل نيكيتا الحصانَ من باب العربات بعد أن فتحه بيتروشكا، إلى الفناء، وربطه تحت إفريز مستودع الحصيد الذي كانت أرضه مغطّاةً بطبقة سميكة من الزبل، وُعلِّق الطوقُ في إحدى العوارض. وأخذت الدجاجات والديك التي باتت ليلتها فيه تنقّ وتضطرب لاستيائها من هذا الازعاج. وخافت النعاجُ فألقت بنفسها ذات اليمين وذات الشمال، مثيرة الصخب وهي تضرب بأرجلها الأرض المتجمّدة. وطفقَ الكلب ينبح على الواغلين نباح الخوف والسخط.

كلّم نيكيتا كلَّ أولئك: اعتذر للدجاجات وهو يَعِدُها بأنه لن يزعجها بعد الآن، ويلوم النعاج لأن الخوف استولى عليها دونما سبب، ولم يكفّ عن حث الكلب على الهدوء، وهو يربط الحصان. وقال وهو ينفض الثلج الذي انتثر عليه:

- ها قد مشت الحال الآن.

ثم أضاف وهو يلتفت إلى الكلب:

- انظرْ إليه كيف بُحّ من العواء. كفى! كفى، يا أحمق! كفى! أنت تُتعب نفسك دون جدوى. فلسنا لصوصاً.

قال الفتى وهو يدفع بذراعه القوية الزلاّجة التي ظلت في الخارج، إلى مستودع الحصيد:

- هؤلاء هم المرشدون في المنزل، كما هو مكتوب.

سأله نيكيتا:

- أيّ مرشدين؟

شرح الفتى ذلك وهو يبتسم:

- هذا ما هو مكتوب في كتاب «بولسون» ([6]): يقترب السارق خفيةً من البيت، فينبح الكلبُ؛ وهذا يعني لا تكن مغفّلاً، وخُذْ حذرك! ويصيح الديكُ؛ وهذا يعني:

انهض! ويغسل الهرُّ نفسه بلسانه، وهذا يعني: هناك ضيف قادم، فاستعدَّ لإطعامه جيداً.

كان بيتروشكا يعرف القراءة والكتابة ويحفظ عن ظهر قلب كتاب «بولسون»، وهو الكتاب الوحيد الذي يملكه. وكان يحب كثيراً، ولاسيّما عندما يشرب قليلاً كما فعل اليوم، أن يستشهد ببعض الحكم التي تبدو له ملائمة للمناسبة.

قال نيكيتا:

- صحيح.

أردف بيتروشكا:

- أنت متجمّد، على ما أظن، يا عمّ؟

أجاب نيكيتا:

- نعم، قليلاً.

اجتازا الفناء ودخلا المنزل الخشبي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

--4

كان المنزل الذي توقّف فيه فاسيلي اندريتش واحداً من أغنى منازل القرية كلها. فقد كانت الأسرة تملك خمس حصص من الأرض وتستأجر غيرها أيضاً. وكان في الفناء خمسة أحصن، وثلاث بقرات، وعجْلتان، ونحو عشرين نعجة. وكانت الأسرة التي تسكن هذا المنزل تتألف من اثنين وعشرين شخصاً: أربعة أولاد متزوجين، وستة أحفاد، منهم بيتروشكا، المتزوج الوحيد بين الأحفاد، واثنين من أولاد الأحفاد، وثلاثة أيتام، وأربع من نساء الأولاد مع أولادهن. وكانت هذه الأسرة من الأسر النادرة في القرية التي لم تُجر القسمة على أملاكها؛ لكن الشقاق الذي برز، كالعادة، بين النساء كان يفعل فعله سرّاً، وهو فعل سيقود حتماً إلى اقتسام الأملاك. كان اثنان من الأولاد يعملان سقّاءين في موسكو؛ وكان الثالث جندياً. وكان يُقيم في البيت الآن: العجوزان، والابن البكر الذي عاد من موسكو بمناسبة عيد القرية، والابن الثاني الذي يدير المزرعة، وجميع النساء وأولادهن، وفوق ذلك ضيف، جار لهم.

عُلق فوق المائدة مصباح غُطي بكمّةٍ أضاء بشدّة الأواني المعدّة للشاي، وزجاجةً من ماء الحياة، والمقبّلات، والجدران القرميدية التي ازدانت صدورها بالأيقونات بين صفّين من الصور الملوّنة.

جلس فاسيلي اندريتش على المائدة تحت الأيقونات، وهو يرتدي فرويته السوداء. كان يطوف بعينيه الجاحظتين، عيني الثعبان، على الناس والجدران، وهو يمصّ شاربيه.

جلس إلى المائدة، فضلاً عن فاسيلي اندريتش، العجوز الأصلع بلحيته البيضاء، مرتدياً قميصاً من قماش أبيض، وابنُه البكر القادم من موسكو، ورجل عريض الظهر والمنكبين، يرتدي قميصاً من القطن الناعم، والابن الآخر الذي يعمل في البيت، والجار، وهو فلاحٌ نحيلٌ أصهب.

بعد أن شرب الرجال وأكلوا، أقبلوا على الشاي. كان السماور يهدر على الأرض قرب المدفأة. وعلى المدفأة، على الألواح الموضوعة فوقها، نام أطفالٌ؛ وجلست امرأة على مقعد، قرب سرير. وكانت العجوز، ربة المنزل، ذات الوجه المخدّد بتجاعيد دقيقة علّمت شفتيها أيضاً، منشغلةً بفاسيلي اندريتش. في اللحظة التي دخل فيها نيكيتا المنزل، كانت تصبُّ ماءَ الحياة بكأسٍ سميكة قدّمتها وهي تقول:

- لا تحتقرْنا، يا فاسيلي اندريتش. يجب أن تشرب وأن تتمنّى لنا عيداً سعيداً.

إن منظر ماء الحياة ورائحته، في هذه اللحظة بخاصة، هذه اللحظة التي كان فيها نيكيتا متجمّداً ومتعباً شوّشاه تشويشاً عميقاً. فتجهّم وجهه. وبعد أن نفض قبّعته وقفطانه، استدار نحو الأيقونات، وكأنه لم يرَ أحداً، وحياها برسم الصليب ثلاث مرات؛ ثم انعطف نحو المائدة فحيّا العجوز أولاً، ثم جميع الجالسين حولها، وانتهى بأن انحنى أمام النساء الجالسات قرب الموقد. ثم أخذ ينزع ثيابه بعد أن تمنّى العيد السعيد للجميع.

قال الولد البكر لدى مرأى وجه نيكيتا الذي كانت عيناه ولحيته مغطّاة بنثار الثلج.

- أيها العم، لكم أنت مُثقلٌ بالجليد!

خلع نيكيتا قفطانه، ونفضه مرةً أخرى، وعلّقه بمسمار، ودنا من المائدة. كانت هذه اللحظة شاقةً عليه: كان على وشك أن يمسك بالقدح الصغير ويأخذ جرعة من هذا السائل الصافي العَطِر؛ لكنه ألقى نظرة على فاسيلي اندريتش وتذكّر العهد الذي قطعه على نفسه، وتذكّر الجزمة التي باعها ليشرب بثمنها، كما تذكر فتاه الذي وعده بأن يشتري له حصاناً في الربيع، فتنهد وامتنع. وقال وهو يقطّب حاجبيه ويجلس على مقعد قرب النافذة:

- إني لا أشرب؛ أشكركم شكراً جزيلاً.

سأل الابن البكر:

- ولمَ لا تشرب، يا ترى؟

أجاب نيكيتا دون أن يرفع بصره:

- إني لا أشرب، هذا كلُّ ما في الأمر.

وإذ نَظَر بمُؤخرة عينه إلى شاربيه ولحيته، أخذ يخلّصها من نثرات الثلج التي رصّعتها.

قال فاسيلي اندريتش وهو يقضم بسكويتةً:

- الخمر لا تناسبه.

قالت العجوز الطيبة:

- إذن سنشرب الشاي. لا بدّ أنك متجمّد، يا عزيزي. هيّا! يا نساء! ماذا تنتظرن لتقدّمن السماور؟

قالت إحدى الكنّات:

- إنه جاهز.

وبعد أن جفّفت بخرقةٍ السماور الذي كان يَنْفث البخار، رفعته بمشقة ووضعته بتثاقل على المائدة.

روى فاسيلي اندريتش كيف أنهما ضلّا الطريق وعادا مرتين إلى القرية؛ وكيف أنهما سارا زمناً طويلاً على غير هدىً، ولقيا زلاجة تحمل فلاحين سكارى. أبدى العجوز دهشته، واستفسر أين ولماذا ضلّا الطريق، ومن هم السكارى الذين صادفوهم، والوجهة التي عليهما أن يسيرا فيها:

- الطريق حتى «مولتشانوفكا» بسيطة جدّاً.

لا يغلط فيها طفلٌ صغير: يكفي أن تنعطفا في الوقت المناسب. هناك دغل.

أردف الجار:

- ومع ذلك، تُهْتُما.

وألحّت العجوز:

- لعلكما تبيتان هنا؟ ستُعدّ النساء المنامةَ.

وأضاف العجوز:

- وسوف تذهبان في الصباح الباكر؛ سيكون ذلك ممتازاً.

أجاب فاسيلي اندريتش:

- هذا غير ممكن، أيها الأخ. لدي أعمالٌ ذات شأن.

وأردف وهو يتذكّر الغابة والتجار الذين يريدون أن ينتزعوها منه:

- ما نضيعه في ساعة لا يمكن أن نردّه في سنة.

ثم قال نيكيتا:

- وسنصل إلى القرية، أليس كذلك؟

لم يُجبْ نيكيتا رأساً، وكأنه ظلّ مشغولاً بلحيته وشاربيه. وقال أخيراً وهو متجهّم:

- على شرط ألا نضلّ طريقنا مرة أخرى.

كان نيكيتا متجهّماً لأنه اشتهى بقوةٍ ماءَ الحياة؛ الشاي وحده يمكنه أن يُسكّن هذه الشهوة. لكنهم لم يقدّموا له الشاي بعد.

- لكن يكفي أن نصل إلى المنعطف؛ ثم من المستحيل أن نضل طريقنا، إذ تأتي الغابة.

قال نيكيتا وهو يتناول فنجان الشاي الذي قُدّم إليه:

- هذا شأنك، يا فاسيلي اندريتش. كما تشاء.

- لنشربْ، ثم لِنَسرْ!

لم يقل نيكيتا شيئاً؛ لكنه هزّ رأسه. وبعد أن صبّ بحذرٍ الشاي في صحيفته أخذ يُدفئ على البخار يديه بأصابعهما التي ورّمها العمل.

ثم تناول بفمه قطعةً صغيرة من السكر وحيّا العجوزين قائلاً:

- على صحتكما.

وامتصّ السائل الساخن.

قال فاسيلي:

- ليت أحداً يقودنا إلى المنعطف.

قال الابن البكر:

- ولمَ لا؟ سيربط بيتروشكا الحصان ويقودكما إلى المنعطف.

- اربطْ إذنْ، يا صاحبي. وأنا سأشكرك.

تدخّلت العجوز:

- ماذا تقول، يا عزيزي؟ إن هذا من كل قلبنا.

قال الابنُ البكر:

- بيتروشكا، اربط الفرس.

قال بيتروشكا، وهو يبتسم:

- حاضر.

وإذ تناول قبعته التي تدلّت من مسمار، جرى ليربط الفرس بينما كان الفتى يربط الفرس استُؤْنف الحديثُ الذي قطعه وصولُ فاسيلي اندريتش. كان العجوز يشكو لجاره من ابنه الثالث الذي لم يرسل إليه شيئاً للعيد ولم يُهد زوجته سوى منديل فرنسي. وكان يقول:

- لم يعد الشبابُ يطيعون.

- بالتأكيد! ولا حيلة لنا معهم! إنهم مفرطو الذكاء. انظرْ إلى ديوموتشكين! لقد كسر ذراع أبيه. كل هذا يأتي، بلا ريب، من أنهم يعرفون من الأشياء أكثر مما ينبغي.

كان نيكيتا يُصغي بانتباه، ويفحص الوجوه، وودّ، بلا شك أن يشارك في الحديث؛ لكنه كان مستغرقاً في تناول الشاي، واكتفى بأن هزّ رأسه إشارةً إلى موافقته. كان يفرغ الفنجان بعد الفنجان، فيزداد دفئاً وشعوراً بالتحسّن. وظلّ الحديثُ يدور على الموضوع نفسه، على قسمة الأملاك والشر الناجم عن ذلك. وكان واضحاً أن المقصود ليس حالةً مجرّدةً، ولكن المقصود كان هذا المنزل بالذات؛ ذلك أن الابن الثاني الذي يجلس قرب والده متجهّماً وصامتاً كان يطلب تلك القسمة. وكان بديهيّاً أن هذه المسألة مؤلمةً وقد شغلت الأسرة بكاملها.

على أن العجوز لم يتمكن من أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك، فأعلن، والدموعُ في صوته، أنه مادام حيّاً فلن يقبل القسمة، وأن كل شيء وافرٌ، بفضل اللّه، وأن القسمة إنْ تمّت فإن الأسرة ستنتهي بالتسوّل تحت نوافذ البيوت.

قال الجار:

- ذلك مثل أسرة «ماتفيف» كان عندها كل ما يلزمها؛ والآن بعد أن تفرقّت لم يعد أحدٌ يملك شيئاً.

قال العجوزُ مخاطباً ابنه:

- هذا ما تريده، أنتَ.

لم يجب هذا وأطبق صمتٌ مزعج. قطعه بيتروشكا الذي ربط الفرس وعاد منذ بضع لحظات؛ كان يصغي ويبتسم. وقال وهو يبتسم إبتسامةً عريضةً:

- في كتاب «بولسون» حكايةٌ حول ذلك. طلب أبٌ من أولاده أن يكسروا مكنسةً فلم يُفلحوا، لكنهم عندما فصلوا القش بعضه عن بعض صار الأمرُ سهلاً. هذا صحيح كلياً. لقد تمّ لهم الأمر.

قال فاسيلي اندريتش:

- تمّ لهم الأمرُ. إذن فلنذهبْ. وبالنسبة إلى القسمة، أيها الجد، لا تتنازلْ. أنت جمعتَ كلَّ شيء؛ وأنت السيد. راجعْ قاضي الصلح. سيقول لك ما ينبغي فعلهُ.

تابع العجوزُ بصوتٍ باكٍ:

- إنه يُقيم الكثير من العراقيل، الكثير من العراقيل، حتى عجزنا معه فكأن الشيطان قد تلبّسه.

بعد أن أنهى نيكيتا فنجانه الخامس، لم يقلب فنجان الشاي الفارغ، وإنما وضعه على جانبه آملاً أن يُصَبَّ له فنجانٌ سادس. لكن السماور فرغ، ولم

تقدّم له العجوزُ شيئاً؛ ومن جهة أخرى، أخذ فاسيلي اندريتش يرتدي ثيابه. فلا مناصَ من الذهاب: نهض نيكيتا، وأعاد إلى السكّرية قطعة السكر الصغيرة التي قرضها من جهاتها كافةً، ومسح بطرف قفطانه وجهه المتصبب عرقاً، وارتدى فرويته. وعندما تأهّب، تنهّد بعمق وشكر مضيفيه وودعهم، ثم خرج من الغرفة المضاءة والدافئة ليدخل المدخل المظلم والبارد، الممتلئ ثلجاً، والذي كانت الريح تنفذ إليه وهي تعوي من خلال شقوق الباب والجدران. ثم نزل إلى الفناء.

كان بيتروشكا الذي ارتدى فرويّته، واقفاً قرب الفرس، يُلقي، وهو يبتسم، أشعاراً من كتاب «بولسون»:

«العاصفة تغشّي السماوات المظلمة إذ تثير زوابع من الثلج؛ فهي حيناً تعوي كما يعوي الوحش، وهي حيناً آخر تنوح كما ينوح الطفل».

كان نيكيتا يهز رأسه موافقاً ويفكّ المقود.

رافق العجوزُ فاسيلي اندريتش وبيده مصباح. أراد أن يضعه في المدخل ليرى ضيوفه بوضوحٍ أكبر، لكن الريح ما لبثت أن أطفأته. وكان جليّاً، حتى في الفناء، أن العاصفة الثلجية تهبّ بعنفٍ أشد من ذي قبل.

فكّر فاسيلي اندريتش:

- ما أسوأ الطقس! ربما كان من الأفضل أن نمكث هنا. لكن هذا غير ممكن: الأعمال! ثم إننا قد تهيّأنا للسفر، ورُبط فرسُ صاحب البيت... سوف نتخلّص من هذا المأزق. وسيُعيننا اللّه!»

وكان العجوزُ يقول في نفسه أيضاً أنه قد كان من الأفضل لو باتوا هنا؛ لكنه قد نصحهم فلم يسمعوا نصحه. ولا جدوى من الإصرار. وفكّر في نفسه: لعلي أصبحت أتخوف لأني كبرتُ! ربما لم يُصبْهم شيءٌ. ثم إننا، بهذه الطريقة، سننام مبكرين دون قلقلة...».

أما بيتروشكا فلم يخطر بباله الخطرُ البتّة: كان يعرف جيداً الطريق والضواحي! ثم إن الأشعار التي ألقاها رفعتْ من عزيمته، لأنها تعبّر تماماً عمَّا يجري أمام عينيه.

وأما نيكيتا، فلم يرغب في الذهاب، لكنه تعوّد منذ زمن بعيد أن يتخلّى عن إرادته وأن يكون في خدمة الآخرين، وإذن فلم يردّ المسافريْن أحدٌ عن سفرهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

--5

دنا فاسيلي اندريتش من الزلاّجة وهو يتلمّس طريقه إليها، إذ لم يكن يُرى شيءٌ، وصعد إلى داخلها وتناول المقود، وصاح بيتروشكا:

- امضِ أمامنا.

أطلق بيتروشكا العنان لفَرسه، وهو راكع في زلاّجته العريضة المنخفضة. انطلق الكميتُ الذي كان يصهل منذ برهة، في أثر الفرس التي أحسّ بها أمامه.

ساروا في الطريق نفسه التي ساروا فيها قبل حين، ومرّوا مرةً أخرى أمامَ الفناء الذي كان يصطفق فيه بفعل الهواءِ الغسيلُ المتجمّدُ الذي لم يكن يُميَّزُ، وأمام مستودع الحصيد الذي غمره الآن الثلجُ تماماً، وأمام الخنشارة التي انحنت تحت هبّات الريح وأخذت تئنّ وتصفر صفيراً حزيناً؛ وغاصوا مرة أخرى في بحرٍ هائجٍ هاجمتهم أمواجه الثلجية من كل جانب. وكانت الريح من القوة بحيث أنها إذَا هبّت من هذه الجهة أمالت الزلاّجة ودفعت الجواد إلى الجهة المقابلة.

جرى بيتروشكا بفرسه النشيطة التي كان يحثها بصرخاته الحادة وكان الكميتُ يجهد في إدراكها.

مضوا على هذا المنوال نحواً من عشر دقائق، وعندها استدار بيتروشكا وصرخ ببضع كلمات لم يفهمها فاسيلي اندريتش ولا نيكيتا بسبب الريح؛ لكنهما تكهّنا بأنهم بلغوا المنعطف. وبالفعل فإن بيتروشكا انعطف إلى اليمين؛ وأخذت الريح التي تأتيهما من الجانب تهبّ على وجوههم، وشاهدوا من خلال الثلج إلى اليمين بقعاً سوداء. كان هذا هو الدغل.

- ليكن اللّه معكم!

- شكراً، بيتروشكا.

صاح بيتروشكا لآخر مرة:

- العاصفة تغشّي السماوات بالظلمة؟

قال فاسيلي:

- يا لهذا الهاوي للشعر!

وضرب بالمقود جانبي الحصان ضرباً خفيفاً.

قال نيكيتا:

- نعم، إنه فتى طيّب، فلاح حقيقي.

وسار بسرعة.

تلفّع نيكيتا بفرويّته وأولج رأسه بين كتفيه حتى إن لحيته القصيرة ضغطت على عنقه. وظل صامتاً، محاولاً ألاّ يُضيع الحرارة التي تزوّد بها وهو يشرب الشاي. وكان يميّز أمامه خطّيْ العريشين المستقيمين اللذين كانا يخدعانه أبداً، لأنه كان يظنهما حافتي الطريق، وردفَ الحصان المتذبذب، بذيله المعقود الذي كانت تردَّه الريح دائماً إلى الجهة نفسها، وأبعد من ذلك، في المقدّمة، رأس الحصان وهو يتمايل تحت طوقه المرتفع، وعنقه التي انتصب شعرُ ناصيتها. وكان نيكيتا يشاهد الشواخص، بين حين وآخر؛ وحينئذٍ كان يعلم أنهما يسلكان الطريق، وأن ليس عليه، من ثَمَّ، أن يفعل شيئاً.

كان فاسيلي اندريتش يقود الزلاّجة سامحاً للحصان أن يحافظ هو نفسه على الإتجاه الصحيح. لكن مع أن الكميت استراح إلا أنه كان كأنه يخبّ بالرغم منه، وكان يبدو عليه أنه يريد الإنحراف عن الطريق حتى أن فاسيلي اندريتش اضطرّ أن يجذب مقوده عدة مرات.

كان فاسيلي اندريتش يعد الشواخص: «هذا شاخص إلى اليمين، وذاك ثانٍ، وذاك ثالثٌ» ثم قال في نفسه: «وتلك هي الغابة، هناك». قال ذلك وهو يسعى إلى تمييز كتلة سوداء لمحها أمامه. لكن ما بدا له غابةً لم يكن سوى دغل. وتجاوز الدغل وقطع نحو ستين ذراعاً فلم يقع لا على شاخصٍ ولا على الغابة. وقال فاسيلي اندريتش في نفسه: «لابدّ أن تكون الغابةُ هنا». ولما كان ماءُ الحياة والشاي قد حرّكاه، فإنه لم يكفّ عن حث الحصان الذي كان مطواعاً وشجاعاً، يجري هرولة حيناً، وخباً خفيفاً حيناً آخر في الإتجاه الذي يُساق إليه، مع علمه بأن هذا الإتجاه غير صحيح. مرّت عشر دقائق وظلت الغابةُ غائبة عن النظر.

صاح فاسيلي اندريتش وهو يوقف حصانه:

- ها نحن قد ضللنا الطريقَ مرة أخرى!

نزل نيكيتا من الزلاجة ممسكاً بقفطانه الذي كان يلتصق بجسمه حيناً، وينقلب وينفتح انفتاحاً عريضاً حيناً آخر، وأخذ يسير خلال الثلج في هذه الجهة وفي تلك. توارى كليّاً ثلاث مرات عن بصر فاسيلي اندريتش. وأخيراً عاد وأخذ المقود من يدي معلمه، وقال بلهجة قاسية وصارمة:

- يجب أن نذهب إلى اليمين.

وأدار الحصان.

قال فاسيلي وهو يسلمه المقود ويخفي يديه المتجمّدتين في كمّيه:

- حسناً فلنذهبْ إلى اليمين.

ولم يجب نيكيتا بشيء، وصاح بالحصان:

- هيّا، يا صديقي العزيز، شدّ حيلك.

لكن الحصان ظل يسير الهوينا، مع أن نيكيتا أخذ يجذب المقود.

في بعض المواضع كان الحصان يغوص في الثلج حتى ركبتيه، ولدى كل حركة كانت الزلاّجة تسير برجّات قصيرةٍ.

تناول نيكيتا السوط الذي كان معلّقاً في مقدمة الزلاّجة، وضرب به الحصان. فبذل الحصان المطواع الذي لم يتعود الضرب جهداً عنيفاً، وأخذ يخبّ خباً، لكنه ما لبث أن عاد مباشرة إلى الهملجة ثم السير البطيء. سارا هكذا نحو خمس دقائق. كان الجو مظلماً جدّاً وزوابع الثلج كثيفة جدّاً بحيث تعذّرت أحياناً مشاهدة طوقه. وكان يبدو أحياناً أن الزلاجة لا تتحرك وأن السهل ينزلق إلى الوراء. وفجأة توقف الحصانُ لأنه توجّس، دون شك، شيئاً من الخطر.

نزل نيكيتا مرة أخرى وتقدم ليتبيّن سببَ هذا التوقّف؛ لكنه ما كاد يتجاوز رأس الحصان حتى زلّت قدماه فتدحرج إلى الأسفل.

أخذ يقولُ في نفسه وهو يجهد في الوقوف: «قفْ! قفْ! قفْ!» لكنه لم يتمكن من إيقاف نفسه ولم يتوقف إلا عندما دخلت قدماه في طبقة الثلج السميكة التي كوّمتها الريحُ في قاع الوهدة.

إن الثلج المتكوّم في ذروة الوهدة والذي هزّه سقوط نيكيتا، انهار عليه حتى بلغ عنقه، تحت ثيابه، فقال بلهجة الملامة مخاطباً الوهدة وكومة الثلج:

- آه! هكذا، أنتما!

وأخذ ينفض الثلج.

أخذ فاسيلي اندريتش يصرخ من فوق:

- نيكيتا! يا نيكيتا!

لكن نيكيتا لم يجب.

لم يكن لديه متّسع من الوقت؛ كان ينفض نفسه ويبحث عن السوط الذي سقط وهو يتدحرج إلى الأسفل. وحين وجده تهيّأ للصعود من المكان نفسه الذي انزلق منه، لكنه لم يفلح في ذلك؛ كان ينزلق إلى الأسفل. حتى إنه في النهاية اضطر أن يسير إلى قاع الوهدة لكي يجد مخرجاً. وعلى تسعة أذرع

من الموضع الذي زلّت فيه قدمُه، أفلح بصعوبة في الصعود مستعيناً بيديه، وطفق يسير حينئذٍ بمحاذاة الذروة نحو الموضع الذي لا بدّ أن يكون فيه، باعتقاده، الحصانُ. بيد أنه لم يشاهد لا الحصان ولا الزلاجة، لكن بما أنه كان يسير بعكس إتجاه الريح سمع صرخات فاسيلي اندريتش وصهيل الكميت الذي يناديه، قبل أن يراهما، وقال:

- أنا آتٍ، أنا آتٍ! مالك تزعق هكذا؟

ولم يُبصرِ الزلاجة وبجنبها فاسيلي اندريتش الذي بدا له ضخماً، إلا عندما صار قريباً جدّاً منهما.

قال فاسيلي اندريتش لنيكيتا بلهجة غاضبة:

- أين اختفيتَ؟ تبّاً لك! يجب أن نعود أدراجنا.

لنعدْ على الأقل إلى «غريشكينو».

- العودة إلى غريشكينو؟ لست أطلب خيراً من ذلك. لكن كيف؟ ها هنا وهدةٌ شديدة العمق بحيث لا يخرج منها مَنْ كان فيها. لقد تدحرجتُ إليها ولم أعدْ إلا بجهد جاهد.

قال فاسيلي اندريتش:

- وإذن فلن نبقى هنا! يجب أن نتقدّم.

لم يجب نيكيتا. جلس في الزلاجة وقد أدار ظهره إلى الريح، ونزع جزمته وأسقط منها الثلج الذي انسلّ إليها. ثم تناول قبضةً من القش وسدّ بها بعناية ثقب الفردة اليسرى من جزمته.

أخلد فاسيلي اندريتش إلى الصمت وكأنه اطمأن إلى فطنة نيكيتا. وبعد أن احتذى نيكيتا جزمته، دخل الزلاجة، ووضع قفّازيه، وتناول المقود، وأدار الحصان، وساقه على محاذاة الوهدة. لكنهما ما كادا يسيران نحو مائة خطوة حتى توقف الحصان مرة أخرى، فجأة. لقد ألفيا نفسيهما هذه المرة أيضاً أمام وَهْدة.

نزل نيكيتا مرة أخرى وراح يبحث عن ممرّ. دام ذلك زمناً طويلاً وأخيراً برز من الجهة المقابلة للجهة التي انطلق منها. وصاح:

- يا اندريتش، أما تزال حيّاً؟

أجاب فاسيلي اندريتش:

- أنا هنا! ما الخبر؟

- الخبرُ أن قواي نفدت، وأن الحصان أيضاً منهك.

- ما العمل إذن؟

- انتظرْ قليلاً.

وانطلق نيكيتا مرة أخرى؛ لكنه ما لبث أن عاد هذه المرة بسرعة، وقال وهو يقف أمام الحصان:

- اتبعني.

كفَّ فاسيلي اندريتش عن إلقاء الأوامر، وكان يفعل، دون أن يرد، كل ما يقوله نيكيتا: صاح نيكيتا مرة أخرى:

- اتبعني.

خطا خطوة إلى اليمين، وأمسك لجام الكميت بسرعة ودفعه نحو الوهدة، عبر رُكام الثلج الذي كان يعلو ذروتها.

قاوم الحصان في البدء، لكنه وثب إلى الأمام بعد ذلك، وهو يحسب أنه يستطيع المرور من فوق كومة الثلج، فلم يفلح وغاص في الثلج حتى عنقه.

صاح نيكيتا فاسيلي اندريتش الذي ظلّ في الزلاجة؛

- هلاّ خرجتَ؟

وتناول أحد العريشين وأخذ يدفع الزلاجة التي علَتْ كفل الحصان.

وقال للحصان:

- هذا صعبٌ، يا أخي، لكن، ما العمل! شدَّ حيلك. هيّا! هيّا!

اندفع الحصان مرتين فلم يتمكن من الصعود؛ حينئذٍ تجمّع على نفسه وبدا كأنه يفكّر. فقال له نيكيتا:

- هيّا! يا أخي! لا يمكننا البقاء هكذا. هيّا، هذه المرة أيضاً!

أمسك نيكيتا مرة أخرى بأحد العريشين، بينما كان فاسيلي اندريتش يدفع الآخر. هزّ الحصان رأسه وتهيّأ للاندفاع ووثب. فصاح نيكيتا:

- امضِ! امضِ! لا تخشَ شيئاً! فلن تغرق!

وثب الحصان وثبةً، ثم ثانيةً، ثم ثالثة، واستطاع أخيراً الخروجَ من كومة الثلج. حينئذٍ توقّف، وهو يلهث بمشقة، وينتفض.

أراد نيكيتا أن يسير أيضاَ، لكن فاسيلي اندريتش كان يلهث لهاثاَ شديداً تحت فرويته عجز معه عن المشي، فتهالك على الزلاّجة، وقال وهو يفك المنديل الذي ربطه في القرية حول ياقة فرويته:

- دعني أتنفس.

أجاب نيكيتا:

- ستكون الحال أحسن الآن. ابق هنا. وسأقودك.

وبينما كان فاسيلي اندريتش يستقرّ في الزلاّجة، أخذ نيكيتا الحصان من لجامه، وسار به نزولاً نحو عشر خطوات، ثم قاده إلى موضع أعلى قليلاً وتوقف.

لم يكونا في قاع الوهدة حيث كان يمكن للثلج الذي تطرده الريح أن يغطيّهما كليّاً؛ لكن الموضع الذي وقف فيه نيكيتا كان أدنى من الذروة فحمتهما ذروة الوهدة من العاصفة. كانت الريح تبدو أنها تخمد، في بعض اللحظات؛ لكن هذه الهدآت النسبية لم تكن تدوم. فبعد الهَدْأة، كانت العاصفة تعود إلى الهبوب بأضعاف قوتها وكأنها تريد أن تستدرك الزمن الذي فاتها، وكانت تكسح الثلج في زوابع، بهياج أشد شراسةً. وقد انقضّت عليهما إحدى هذه العصفات في اللحظة التي كان فيها فاسيلي اندريتش الذي استردّ أنفاسه، يخرج من الزلاجة ويقترب من نيكيتا ليسأله عمّا ينوي فعله.

انحنيا كلاهما تلقائياً، وبقيا في مكانهما ينتظران أن يهدأ غضب الرياح. وأسدل الحصان أذنيه مغتاظاً وحرّك رأسه. وما إن خفّ هبوب الريح حتى خلع نيكيتا قفّازيه، ودسّهما في زنّاره، ونفخ في يديه، واخذ يفكّ طوق الحصان. فسأله فاسيلي اندريتش:

- وماذا تفعل؟

أجاب نيكيتا وكأنه يعتذر.

- أفكّ الحصان. ماذا بوسعنا أن نفعل غير ذلك! أنا منهك!

- ألا يمكننا متابعة السير؟

- وإلى أين نذهب؟ سنقتل الحصان. انظرْ إليه، إنه لم يعد يستطيع الحراك.

قال نيكيتا ذلك، وهو يشير إلى الحصان الذي خفض رأسه، منصاعاً، مستعداً لكل شيء، والذي كانت أنفاسه اللاهثة تحرك خاصرتيه المبلّلتين بالعرق. وأضاف:

- يجب أن نقضي الليل هنا.

وكأن قضاء الليل هنا كقضاء الليل في النزل؛ وأخذ يفك السير الذي يثبت الإكليل، فسقطت الإبزيمات.

قال فاسيلي اندريتش:

- ألا نموت من البرد هنا؟

أجاب نيكيتا:

- ربما متنا. لكن ماذا بوسعنا أن نفعل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-6-

أحسّ فاسيلي اندريتش بالدفء الشديد تحت فرويته، ولاسيما بعد أن تخبّط مع الحصان والزلاّجة في كومة الثلج. لكن ظهره بَردَ عندما أدرك أنّ عليهما أن يقضيا الليل في العراء. ولكي يحاول تسكين نفسه جلس في الزلاجة وتناول من جيبه سيجاراته وعلبة الكبريت.

في أثناء ذلك، كان نيكيتا يفك الحصان. فكَ الحزام والمقعد الخشبي والمقود والمجرّات، ورفع عقده، دون أن يكفّ عن مخاطبة الحصان وتشجيعه.

كان يقول له وهو يجرّه خارج العريشين:

- هيّا، اخرج من هنا. سوف أربطك، سأعطيك شيئاً من القش وسأنزع لجامك. (وكان يفعل ما يقوله). فإذا أكلتَ أحسست بسرور أكبر.

كان واضحاً أن كلام نيكيتا لا يفلح في تهدئة الكميت الذي بدا عليه الإضطراب الشديد. كان يضرب الأرض بقدميه، ويلتصق بالزلاجة، وظهره للهواء، ويفرك رأسه بكمّ نيكيتا.

تناول الحصان بحركة نزقة قليلاً من قش الزلاجة، وكأنما فعل ذلك لكي لا يحرج نيكيتا ليس غير؛ لكنه ما لبث أن قَرّر تَرْك القش لأن هذه اللحظة ليست للأكل. واستولت الريح في اللحظة نفسها على القش وبدّدته بعيداً.

قال نيكيتا:

- لنضع الآن علامة.

وأدار الزلاجة إلى مواجهة الريح، وربط بحزام المقعد طرفي العريش، ونصب العريشين وأسندهما إلى مقدمة الزلاّجة. وقال وهو يلبس قفازيه بعد أن نفضهما:

- انتهيت! فإذا ما غمرنا الثلج رأى الناس العريشين وجاؤوا لإخراجنا من تحته. هكذا علمنا الشيوخ أن نفعل.

حلّ فاسيلي اندريتش فرويّته التي جهد في تثبيت جانبيها وأخذ يحك عيدان الكبريت الواحد تلو الآخر على علبةٍ فولاذية؛ لكن يديه كانتا ترتجفان، وكانت العيدان التي تشتعل تنطفئ فوراً وتنطفئ في اللحظة نفسها التي يقرّبها من سيجارته. وأخيراً اشتعل أحدهما وأضاء، في مدى ثانية، فروَ الفرويّة، ويده التي ازدانت سبابتها بخاتم ذهبي، وقشُّ الشوفان المغطّى بنثار الثلج الذي كان ينبعث من تحت الجلّ. اشتعلت السيجارة. سحب منها بنهمٍ سحبتين، وبلع

الدخان ثم نفثه عبر شاربيه. وأراد أن يتابع، لكن الريح انتزعت السيجارة وحملتها بعيداً.

أبهجت هاتان السحبتان فاسيلي اندريتش، فقال بلهجة حازمة:

- إن كان لا بدّ من ذلك فلنبثْ هنا. انتظرْ قليلاً، سأصنع رايةً.

إلتقط المنديل الذي رماه قبل حين في الزلاجة، ونزع قفّازيه، ووقف على مقدمة الزلاجة، ومدّ نفسه ليبلغ الحزام الذي يصل بين العريشين وربط به ربطاً قوياً المنديلَ الذي أخذت الريحُ تحرّكه بعنفٍ ليصطفق، فتلصقه حيناً بالعريش، وتنفخه حيناً آخر كالشراع.

قال فاسيلي اندريتش وهو يتأمّل صنع يديه، ويستقرّ في الزلاجة:

- الأمر حسن هكذا!

وأضاف:

- لو كنا اثنين لكان ذلك أدفأ لنا. لكن لا سبيل إلى ذلك.

قال نيكيتا:

سأجد مكاناً لي. لكن يجب أن أُغطّي الحصان، لأنه مبلّل بالعرق، الحصان الغالي:

وأضاف وهو يقترب من الزلاجة:

- دعني أمرّ.

وسحب الجلّ من تحت فاسيلي اندريتش، ثم طواه طيتين، وغطّى به الحصان بعد أن نزع الحياصة والمقعد.

وقال وهو يعيد الحياصة والمقعد فوق الجلّ:

- ستكون هكذا أكثر دفئاً، أيها الأحمق الصغير.

وبعد أن انتهى، دنا مرةً أخرى من الزلاّجة وقال لفاسيلي اندريتش:

- أنت لست بحاجة إلى الجنفيصة، أليس كذلك؟ وأعطني قليلاً من القش.

وسحب الجنفيصة والقش من تحت فاسيلي اندريتش. ومضى إلى خلف الزلاّجة، وحفر حفرةً في الثلج وفرشها بالقش. وبعد أن أغرق قبعته في رأسه، تلفلف بقفطانه، وتغطّى بالجنفيصة فوقه وجلس على القش مستنداً إلى الزلاّجة التي كانت تحميه من الريح والثلج.

كان فاسيلي اندريتش ينظر إلى نيكيتا وهو يفعل ذلك نظرة استنكار، لقد كان يستنكر دائماً، على كل حال، جهل الفلاحين وبلاهتهم.

وأخذ بدوره يتهيأ للمبيت. ففرش في أرض الزلاجة ما بقي من القش، وجمّعه تحت جنبه، وأدخل يديه في جيبه، وتمدد في زاوية الزلاجة، مسنداً رأسه إلى مقدمتها المرتفعة التي كانت تحميه هكذا من ريح الشمال.

لم يكن يرغب في النوم. كان يفكّر: كان يفكّر دائماً في الشيء نفسه، فيما كان يكوّن هدفَ وجوده ومعناه وفرحه وكبرياءه، في المال الذي كسبه والذي ما يزال قادراً على كسبه، في المال الذي يملكه آخرون يعرفهم، وفي الوسائل التي بواسطتها جمعوا ثرواتهم، وفي الطريق التي بفضلها يستطيع مثلهم أن يكسب الكثير من المال. وكان شراء غابة غورياتشكينو يمثّل بالنسبة إليه أهمية عظيمة: كان يأمل أن يربح من هذه الصفقة أرباحاً طائلة: ربما ربح منها نحو عشرة آلاف روبل.

وأخذ يثمّن في خياله الغابة التي طاف بها في الخريف والتي عدّ أشجارها على مساحة هكتارين.

«أشجار السنديان تعطي خشب الزلاّجات، وخشب الصقالات، وكل هكتار سيعطي تسعين ذراعاً من خشب التدفئة. وسأكسب من كل هكتار خمسة وعشرين روبلاً على الأقل. وهناك ما مجموعه ستة وخمسون هكتاراً. ستة وخمسون هكتاراً، أي ست وخمسون مئة، وأيضاً ست وخمسون مئة، وست وخمسون عشرة، وأيضاً ست وخمسون عشرة، ثم خمس مرات من ست وخمسين». ورأى أن حاصل ذلك أكثر من اثني عشر ألفِ روبل، لكنه لا يستطيع أن يصل إلى الحساب الدقيق دون عدّادة. «لن أُعطي مع ذلك عشرة آلاف روبل، بل ثمانية آلاف، وذلك بخصم ثمن فُرج الغابة سأدسّ في يد المسّاح مئة روبل، بل حتى مئة وخمسين، وسيحسب لي خمسة هكتارات من الفُرج. نعم، سيبيعها بثمانية آلاف. سأناوله مباشرةً ثلاثة آلاف روبل. ولسوف يلين، دون شك!» وجس بكوعه محفظته في جيبه. «كيف أمكن أن نضلّ طريقنا بعد أن تجاوزنا المنعطف؟ اللّه أعلم! لا بد أن تكون الغابة هنا، والكوخ. لكننا لا نسمع الكلاب فهذه الكلاب الملعونة لا تنبح عندما نحتاج إليها».

نحّى ياقته وأصاخ السمع؛ لكنه لم يسمع سوى صفير العاصفة، واصطفاق المنديل المعلّق بالعريش، وحفيف الثلج وهو يلطم الزلاجة. فتغطّى.

«لو كنا نعلم لبتنا في القرية. لا أهمية لذلك سنصل غداً. ولن نضيع سوى يوم. وفي مثل هذا الطقس لن يتحرك الآخرون أيضاً».

وتذكّر أنه سيتسلّم المال في 9 من اللحّام. «يريد أن يأتي بنفسه، لكنه لن يلقاني. ولن تستطيع امرأتي أن تقبض هذا المال. فهي حقّاً قليلة التعلم جدّاً وهي لا تُحسن التصرّف». وتذكّر أنها لم تحسن التصرف مع مدير المنطقة الذي نزل ضيفاً عليهم عشية أمس. «امرأة! أنا أعرف ما هي! ماذا رأت؟ كيف كان منزلنا في زمن أهلي؟ لم يكن شيئاً ذا بال! منزل فلاح غني: مستودع للحصيد، ونُزُل. هذا كل ما كنا نملك. وأنا، ماذا حصّلتُ في خمس عشرة سنة؟

حانوتاً، وحانتين، ومطحنة، ومخزناً للحبوب، وقطعتي أرض مؤجرتين، وبيتاً، وحظيرة سقفُها من حديد. الأمر مختلف عمّا كان عليه في عهد أبي! عمّن يتحدّث الناس اليوم في المقاطعة كلها؟ عن بريكونوف» كل ذلك كان يقوله بفخرٍ، وفكّر في نفسه بفخر أيضاً:

«ولمَ ذلك؟ لأنني أعمل. لست كالآخرين، الكسالى أو الذين تلهيهم الحماقات. أنا لا أنام الليل. وسواءً أكان الطقس حسناً أم سيئاً: فأنا أسافر. وهكذا يتقدم الشغلُ. يظنّ بعضهم أن المال يُكسَبُ هكذا: بالمزح. كلا، عليك أن تكدَّ وتكسر رأسكَ، وأن تقضي الليل في العراء، وألاَ تنام. ولفرط التفكير تصبح الوسادة وكأنها داخل رأسنا. يتخيّل بعضهم أن المرء يصبح إنساناً مرموقاً بالحظ. آل ميرونوف من أصحاب الملايين الآن. لماذا؟ اعملْ! وسيكون اللّه بعونك. ليعطني اللّه الصحة فقط!

هزّته هذه الفكرةُ وهي أنه قد يصبح من أصحاب الملايين مثل ميرونوف الذي انطلق من لا شيء، هزّاً شديداً حتى أحسّ بالحاجة إلى أن يكلّم أحداً. لكن لم يكن هناك أحدٌ يكلّمه... آه! لو كان في غورياتشكينو، لتحدّث مع الملاّك، ولأطلعه على دخيلة نفسه.

«ما أشد صفير الرياح! سوف نُدفَن في أعماق الثلج بحيث لا يمكننا الخروج منه». قال ذلك في نفسه وهو يصيخ السمع إلى زوابع الثلج التي تلطم مقدّمة الزلاّجة. ونهض ونظر حواليه: لم يميّز في العتمة المبيضّة سوى رأس الحصان القاتم، وظهره تحت الجلّ الذي كانت الريح تهزه، وذيله الكثيف المعقود. ومن حوله، من جميع الجهات، خلفه وأمامه، كان يضطرب بحرٌ مظلم، يبدو عليه أن يستنير لبضع لحظات، ثم يزداد كثافة.

فكرّ فاسيلي اندريتش:

أخطأتُ حين أصغيتُ إلى نيكيتا. كان يجب أن نتابع سيرنا. لو فعلنا ذلك لبلغْنا مكاناً ما. كنا على الأقل رجعنا إلى غريشكينو وبتنا عند «تاراس» بينما نحن هنا الآن طوال الليل. آه! نعم، لكن، ما الشيء السارّ؟ نعم، إن اللّه يبارك العمل ولا يعطي الكسالى والحمقى شيئاً... يجب أن أدخّن!»

جلس، وأخرج علبة السجائر من جيبه، وتمدّد على صدره، جاذباً طرف فرويته ليحمي لهب عود الكبريت؛ لكن الريح كانت تُفلح دائماً في الانسلال تحت الفروية لتطفئ أعواد الكبريت الواحد بعد الآخر. وأخيراً نجح فاسيلي اندريتش في إشعال أحدها، وأخذ يدخّن. ولقد ابتهج كثيراً كونه أشعل سيجارته بالرغم من كل شيء. ومع أن الريح هي التي امتصّت سيجارته، إلا أنه استطاع أن يسحب منها سحبتين أو ثلاثاً، فانشرح صدرُه. وعاد إلى النوم، وتغطّى بعناية، وأخذ مرةً أخرى، يفكر في الماضي ويحلم بالثروات المُقبلة؛ ثم تشوّشت أفكاره فجأة وأغفى.

لكنه أحسَّ، على حين غرّة، بمثل الصدمة واستيقظ. أهو الكميت يحاول أن يسحب من تحته أعواداً من القش أم أنها كانت صدمةً داخلية؟ مهما يكن من أمر، استيقظ من جديد، وأخذ قلبه يدق بقوة وبسرعة بدا له معهما أن الزلاّجة أخذت ترتجف تحته؛ ومع ذلك خُيِّل إليه أن الجو غدا أكثر صفاءً فقال في نفسه: «بدأ النهار يطلع؛ اقترب الصبحُ، بلا شك». لكنه ما لبث أن تذكر أن الجو صفا بسبب القمر. ونهض وألقى نظرةً على الحصان. كان الحصان واقفاً يرتجف، وظهره للهواء وانقلب الجل الذي إبيضّ، من الثلج. وانزلفت الحياصة، وأمكنه الآن أن يميّز تمييزاً أفضل رأس الحصان الذي انتثر عليه الثلج، وناصيته المنتفشة. وأطلّ فاسيلي اندريتش من فوق مؤخرّة الزلاّجة ليرى ما الذي حلَّ بنيكيتا. كان نيكيتا جالساً في الوضع نفسه، واختفت قدماه والجنفيصة تحت طبقة كثيفة من الثلج.

فكرّ فاسيلي اندريتش:

«بشرط ألاّ يموت من البرد! فثيابه ليست شيئاً. وسوف أكون أنا المسؤول. يا لهم من أغبياء! تلك عاقبةُ نقص التعليم!» وأراد أن يرفع الجلّ عن ظهر الحصان ويغطّي نيكيتا؛ لكنه قال في نفسه: إنه سيبرد إن نهض وتحرك؛ ثم إنه خاف على الحصان أن يبرد. وفكر وهو يتذكّر امرأته التي لم يكن يحبّها: «لم جئتُ به معي؟ تلك غلطتُها». وتهالك على صدر الزلاّجة. وفكّر فجأة: «إن عميّ قضى هكذا ليلةً كاملة في الثلج، لم يُصَبْ بشيء». لكنه ما لبث أن تذكر حالةً أخرى: «نعم، لكن سيفاستيان كان، عندما رُفع الثلج، ميتاً، متصلبّاً، مثل قطعة لحم مجلّدة. لو أني بقيت في غريشكينو لما وقع شيء».

وإذْ تلفلف بفرويته جيداً لكي لا تضيع حرارةُ الفرو، ولكي تحيط بكل موضع من جسمه، أغمض عينيه وحاول العودة إلى النوم. لكنه لم يستطع أن يستسلم للنوم بالرغم من كل جهوده. على العكس أحس أنه نشيط متحفّز. فعاد يحسب أرباحه وديونه على الآخرين؛ وعاد يتباهى ويفرح بوضعه الرائع؛ لكن أفكاره الآن أخذ يقطعها الرعبُ الخفيّ والأسفُ لكونه لم يبق في غريشكينو. «شيء مختلف أن يتمدّد المرءُ على مقعد، في الدفء!...» تقلب

عدة مراتٍ واضطجع مرةً أخرى، باحثاً عن وضع أكثر إراحةً وقدرةً على حمايته من الريح؛ لكنه لم يجد ما يرضيه. كان ينهض ويضطجع بشكل مخالف، ويغطي قدميه، ويغمض عينيه، ويهدأ لحظة. فتارةً كانت جزمةُ اللباد تضغط على قدميه وتؤلمه، وتارة أخرى كانت الريح التي نفذت من بعض الفتحات. كان يفكر مجدّداً، وهو ممتلئ غيظاً من نفسه، كم كان سيرتاح في المنزل الخشبي في غريشكينو؛ فينهض ويتقلب ويتلفلف بعناية أكبر ويتمدد مرة أخرى.

خُيِّل إلى فاسيلي اندريتش ذات لحظة أنه يسمع من بعيد صياح الديكة. فنفض ياقة فرويته، كله فرح، وأصغى بانتباه. لكنه لم يسمع، بالرغم من انتباهه كله، سوى صوت الريح وهي تصفر بين العريشين وتصفق المنديل، وسوى طقطقة الثلج على الزلاجة.

لم يتحرك نيكيتا منذ أن استقرّ خلف الزلاجة، حتى إنه لم يجب فاسيلي اندريتش الذي سأله مرة أو مرتين. «إنه لا يبالي! لعله ينام».

كذلك فاسيلي اندريتش مغتاظاً وهو ينحني من فوق مؤخّرة الزلاجة لينظر إلى نيكيتا المغطّى بالثلج.

نهض فاسيلي اندريتش وعاد إلى الاضطجاع نحو عشرين مرة. خُيِّل إليه أن هذه الليلة لا آخر لها. وقال في نفسه أخيراً وهو ينهض وينظر حوله: «الصبح يقترب الآن، بلا شك. لو سحبتُ ساعتي! لكني سأبرد لو تكشفت. بيد أني إن رأيت أن النهار يقترب فسوف يبهجني ذلك. ويمكننا أن نربط الحصان».

كان فاسيلي اندريتش يعلم، في قرارة نفسه، أن النهار لا بد أن يكون بعيداً؛ لكن خوفه أخذ يتعاظم فأراد، في الوقت نفسه، أن يتحقّق من شعوره وأن يكذب على نفسه. فكّ في حذر كلّابات فرويته، ودسّ يده تحت ثيابه، وتلمّس طويلاً قبل أن تبلغ صدارته، فسحب منها بمشقة ساعته الفضية المزدانة بزهورٍ من الميناء، ونظر إليها. لكنه لم يرى شيئاً دون إشعال عيدان الكبريت. اضطجع على كوعيه وركبتيه، كما فعل قبل حين، عندما أشعل سيجارة، وإن فعل ذلك هذه المرة بعناية أعظم. اختار، هو يجس العيدان باصبعه، أثخنها، ونجح، من أول مرة، في إشعالها. ودسّ الساعة تحت اللهب، ونظر فلم يصدّق عينيه... كانت الساعة منتصف الليل إلا عشر دقائق فقط. كان الليل في أوله. فقال في نفسه: «أوه! ما أطول هذه الليلة». وسرتْ في ظهره رعشةٌ. وإذ زرّر فرويته وتغطّى بعناية، اضطجع في زاوية الزلاجة، عازماً على الصبر.

وفجأة، سمع بوضوح، عبر نعيب الرياح الرتيب، صوتاً جديداً، صوتاً صادراً عن كائن حي: ارتفع الصوت تدريجيّاً، وانتشر، ثم تناقصت شدتُه بالشكل المنتظم

ذاته. كان صوت ذئب. لا شك في ذلك. وكان هذا الذئب قريباً جدّاً حتى لقد كان يسمع بوضوح كيف يعدّل صوته وهو يحرّك فكيه. أصغى فاسيلي اندريتش بانتباه، بعد أن رد ياقته عن أذنيه. وكان الكميت يُصغي أيضاً، وهو يحرّك أذنيه، وبعد أن انتهى الذئب من عوائه، انحرف الكميت جانباً وانتفض على سبيل التنبيه. وبعد ذلك، لم يعد بوسع فاسيلي اندريتش أن ينام، بل ولا أن يصارع القلق. لقد حاول عبثاً أن يسوق أفكاره نحو أعماله، نحو وضعه وغناه، إلا أن الرعب كان يستولي عليه استيلاءً أشد؛ كانت كل أفكاره خاضعة لسيطرة الأسف لكونه لم يبق في «غريشكينو». وأخذ يردّد: «لا ردّ اللّه هذه الغابة! كان لدي صفقاتٌ مربحة كثيرة دونها، بفضل اللّه! آه! كان ينبغي أن نبيت في غريشكينو». يقولون إن البرد يُصيب المرء إذا شرب، وأنا قد شربت. وأحسّ أنه أخذ يرتعد دون أن يتبيّن إن كان يرتعد من الخوف أو من البرد. وحاول أن يتغطّى وأن يتمدّد كالسابق، لكنه لم يكن قادراً على ذلك. لم يكن بوسعه أن يظلّ في مكانه. كان يرغب في أن ينهض وأن يفعل شيئاً ليخنق الرعب الذي أخذ يثور فيه والذي أحسّ بالعجز إزاءه. وتناول من جيبه مرة أخرى سيجارة، وعيدان الكبريت؛ لكن لم يبق من العيدان سوى ثلاثة هي أسوأ العيدان؛ ولم يشتعل أيٌّ منها.

«قبّحك اللّه، يا ملعونة!» استخدم هذه الشتيمة دون أن يقصد أحداً، ورمى السيّجارة المدعوكة كلّياً. ونوى أن يرمي أيضاً علبة الكبريت، لكنه غيّر رأيه، ودسّها في جيبه. واستبّد به قلقٌ إلى الحد الذي لم يعد ممكناً معه أن يظل في مكانه. فخرج من الزلاّجة، ووقف وظهرهُ للهواء، وأخذ يفكّ زرّاره ليَحْزم به بعد ذلك خصره. وقال فجأة في نفسه: «مالي أنتظرُ الموت هنا؟ سوف أمتطي الحصان، وأمضي إلى الأمام». فالحصان يستطيع أن يخلّص نفسه إذا كان مع خيّاله. وفكّر في نيكيتا: «أما هو فسيّان عنده أن يحيا أم يموت. إن حياته ليست بهيجةً، وهو لا يأبه بها. أما أنا فالحمدُ للّه، عندي مايكفيني للعيش...».

وإذ فكّ الحصان، لجَمه وأراد امتطاءه؛ لكن فرويّته وجزمته كانتا جد ثقيلتين حتى أنه سقط أرضاً. حينئذٍ وقف على الزلاجة ليسهل عليه بلوغ ظهر الحصان؛ لكن الزلاجة تذبذت تحت ثقله فسقطَ مرة أخرى. وأخيراً، كانت المحاولةُ الثالثة أكثر توفيقاً: فقد قاد الحصان إلى قرب الزلاّجة وبعد أن وضع قدمه بحذر على حافتها نجح في الارتماء على ظهر الحصان بالعرض. ظل متمدداً هكذا بضع ثوان، وتوصل بعد مجهودين أو ثلاثة إلى نقل إحدى ساقيه فوق الحصان، واستوى جالساً، وأسند قدميه إلى حزام الحياصة. إن الذبذبة التي أحدثها فاسيلي اندريتش في الزلاّجة أيقظت نيكيتا، فنهض، وخُيِّل إلى فاسيلي اندريتش أنه يقول له شيئاً، فصاح:

- سأكون جدّ غبيّ إن أصغيتُ إليكم، أنتم أيها الحمقى! كيف؟ هل ينبغي أن أدع نفسي أموت هنا اعتباطاً؟

وإذ ردّ على ساقيه أطراف فرويته التي كان الهواء يطيرها، دفع الحصان في الإتجاه الذي لا بدّ أن تكون فيه، برأيه، الغابة وكوخُ الحارس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-7-

منذ اللحظة التي جلس فيها نيكيتا تحت مؤخّرة الزلاّجة، متلفلفاً بالجنفيصة، لم يحرّك ساكناً. كان مثل جميع الذي يحيون بجنب الطبيعة ويعرفون الشقاء، متجلّداً، قادراً على الإنتظار ساعات وأياماً كاملةً دون أن يستشعر قلقاً أو غضباً. ولقد سمع نداءات معلمه، لكنه لم يردّ عليها لأنه لم يشأ أن يتحرك أو يتكلم. ومع أنه ما يزال دافئاً بسبب الشاي الذي شربه والحركة التي أتى بها وهو يتخبط في كومة الثلج، إلا أنه كان يعلم أن هذه الحرارة لن تدوم طويلاً، وأنه لا يملك القوة لأن يُدفئ نفسه بالحركة، إذ أحسّ أنه مُتعبٌ كما يتعب الحصان عندما يعجز عن السير برغم السياط التي تنهال عليه؛ حينئذٍ يدرك صاحبه أن عليه إطعامه لكي يستطيع استئناف العمل. كانت إحدى قدمي نيكيتا في فَرْدة جزمة مثقوبة، فبردت حتى إنه لم يحسّ بابهامه. ثم إن البرد أخذ يجتاح جسمه شيئاً فشيئاً. ومرّت بباله فكرةٌ هي أنه من المحتمل أن يموت هذه الليلة؛ لكن هذه الفكرة لم تَبْدُ له جدّ كريهة ولا جدّ مرعبة. لم تبدُ له جدّ كريهة لأن حياته لم تكن البتّة بهجةً متّصلة، بل كانت، على العكس، عبودية مستمرّةً أخذ يعافُها. ولم تبدُ له هذه الفكرة جدّ مرعبة لأنه كان يحسّ دائماً أنه - إن نحّى جانباً السادة الذين خدمهم على هذه الأرض، مثل فاسيلي اندريتش - خاضع في هذه الحياة للسيّد الرئيسي، للذي أرسله إلى هذه الحياة؛ وكان يعلم أنه إن مات فسيظلّ خاضعاً لهذا السيد، وأن هذا السيّد لن يسيء إليه. وقال في نفسه «إنها لخسارة أن نهجر ما عشنا به وما تعوّدناه! لكن ما العمل! ينبغي أيضاً أن نتعوّد على الجديد». وتساءل: «وذنوبي؟» وتذكر إدمانه السكر، والمال الذي أنفقه على الشرب، والمعاملة السيئة التي عامل بها امرأته، وتجديفه، والكنيسة التي لم يذهب إليها إلا نادراً، وجميع الذنوب التي كان الكاهن يلومه عليها عند الاعتراف. «نعم، صحيح، ذنوبي كثيرة. لكن هل أتحمّلها أنا؟ اللّه هو الذي خلقني هكذا. نعم، الذنوب! لكن كيف نتجنّبها؟» هكذا كان يُفكّر فيما يمكن أن يقع له هذه الليلة. لكنه كفّ عن التفكير، بعد ذلك، في هذه الأمور، واستسلم للذكريات التي أخذت تتولّد من ذاتها في فكره. فحيناً يتذكّر وصول مارفا، وسكرات العمال، والعهد الذي قطعه على نفسه؛ وحيناً آخر يتذكر سفرهما عشية البارحة، ومنزل تاراس الخشبي، والأحاديث بصدد القسمة؛ وفي بعض الأحيان يتذكر فتاه أو الكميت دافئاً تحت الغطاء؛ وفي أحيان أخرى كان يفكر في سيّده وهو يتحرّك فتصرّ الزلاجة: «المسكين جدّ تعس، فيما أظن، لأنه لم يبق في «غريشكينو». مثل هذه الحياة! لا يشتهي المرءُ أن يتركها... أما نحنُ فشيءٌ آخر!»

جميع هذه الذكريات اختلطت شيئاً فشيئاً، وأغفى.

عندما هزَّ فاسيلي اندريتش الزلاّجة وهو يعتلي الحصان، انحرفت المؤخرةُ التي كان نيكيتا يستند إليها، وصدمه أحدُ المزلجين في ظهره. فاستيقظ، واضطُرَّ، طوعاً أو كرهاً، أن يغيّر وضعه. بسط بمشقة ساقيه، ونحّى طبقة الثلج التي غطّتهما، ووقف. وفي الحال أحسّ إحساساً مؤلماً بالبرد يخرق جسمه. وإذ أدرك ما يجري نادى فاسيلي اندريتش وطلب إليه أن يدعَ الجلّ الذي لم يعد يحتاجه الحصانُ الآن والذي يمكن أن يتدثر به هو نفسه.

لكن فاسيلي اندريتش انطلق دون أن يجيبه، وتوارى في الغبار الثلجي الذي كان يدوّم حولهما.

حين بقي نيكيتا وحده فكّر لحظة فيما سيفعله. أحسّ أنه عاجزٌ عن السير بحثاً عن مأوى. وكان عاجزاً أيضاً عن العودة إلى الموضع الذي تركه قبل حين، لأنه اختفى تحت الثلج. وأحسّ أنه لن يدفأ في الزلاجة إذ ليس لديه ما يتغطى به، ولا يمكن لقفطانه وفرويته أن يحمياه من البرد وقد بلغ إحساسه بالبرد حدّاً وكأن ليس عليه سوى القميص، فخاف، وقال: «أيها الأب السماوي».

وهدّأه الإحساسُ بأنه ليس وحيداً، وأن هناك من يسمعه ولا يتخلّى عنه.

تنهّد بعمق، وصعد إلى الزلاّجة، دون أن ينزع الجنفيصة التي تغطي رأسه، وتمدّد مكانَ سيّده.

لكنه لم يتوصل إلى الدفء في الزلاّجة أيضاً وهزّت الرجفةُ جسمه؛ ثم انقطعت الرجفةُ وفقد وعيه شيئاً فشيئاً. لم يكن يعلم إن كان ميتاً أو نائماً، لكنه كان يحسّ بنفسه مستعداً للموت والنوم على حدّ سواء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-8-

في هذه الأثناء، دفع فاسيلي اندريتش الحصان، وهو يضربه بساقيه وباللجام، إلى الوجهة التي ظنّ، ولا يُعرَفُ سببُ ظنه، أن الغابة وكوخ الحارس موجودان فيها. أعماه الثلجُ أما الريح فكانت كأنها تريد إيقافه؛ لكنه مال إلى الأمام. جاذباً أبداً أطرافَ فرويته ليدسّها بين فخذيه والسرج الصغير المتجلّد الذي كان يضايقه كثيراً، وحثّ الحصان الذي كان يسير هملجة، بجهد بالغ، في الإتجاه الذي أراد أن يمضي إليه الرجلُ.

سار فاسيلي اندريتش هكذا مدة خمس دقائق، على خط مستقيم، كما بدا له، وإن لم يكن يرى شيئاً سوى رأس الحصان، والصحراء البيضاء من حوله، ولم يكن يسمع شيئاً سوى صفير الريح قرب ياقة فوريته.

وفجأة أبصر شيئاً أسود أمامه، فوجَبَ قلبُه فرحاً واتجه، بدابته نحو هذه الكتلة السوداء، وخُيِّل إليه أنه قد ميّز جدران بيوت القرية؛ كانت الكتلة لاتني تتحرك، لم تكن بيتاً وإنما كانت ارطماسيّات عالية نبتت في ثلم عميق، وهي تضطرب بشدة أمام هجمة الريح التي أمالتها جانباً وأخذت تصفر بين أغصانها. وليس يُدرى لأي سببٍ جعله منظر هذه الأرطماسيات التي كانت تَلْويها العاصفةُ العاتية يرتعش من الرعب؛ ودفع حصانه إلى الأمام دون أن يفطن إلى أنه حين اقترب من الأرطماسية غيّر اتجاهه. كان يسير الآن في إتجاه آخر، وهو يتخيّل أنه يسير رأساً إلى الغابة والكوخ. لكن الحصان كان ينعطف دائماً إلى اليمين، ولذلك كان يقوده إلى اليسار.

ومرةً أخرى، ميّز شيئاً أسود أمامه ففرح ليقينه أن هذا الشيء لا بد أن يكون القرية، هذه المرة. لكنه كان الأرطماسيات نفسها التي كان الهواء يسوطها، والتي ملأت بالرعب فاسيلي اندريتش، دون أن يعلم السبب. لم تكن النبتات نفسها فقط بل كان يُميز قربها آثار أقدام حصان أخذ الريح يسوّيها. توقّف فاسيلي اندريتش وانحنى ونظر بإمعان: لقد مرَّ حصان من هنا ولا يمكن أن يكون غير حصانه. لقد كان فاسيلي اندريتش دون شك يدور حول نفسه في هذا الحيّز الصغير. قال في نفسه: «سأهلك إن تابعتُ على هذا المنوال». لكنه لكي يقاوم هذا الرعب أخذ يحثّ حصانه حثّاً أشد، ساعياً جهده لأن يخترق بنظره الضباب الثلجي الذي بدا له أنه رأى فيه نقاطاً مضيئة تتلألأ ثم تختفي كلّما حدّق فيها. وخُيِّل إليه ذاتَ مرة أنه سمع نباحَ الكلاب أو عواء الذئاب. لكن هذه الأصوات كانت ضعيفة جدّاً ومبهمة جدّاً، حتى إنه لم يستطع أن يتبيّن إن كان قد سمع حقّاً شيئاً ما أم أنه كان يتوهم توهماً. فوقف وأصاخ السمعَ محاولاً أن يلتقط أدنى الأصوات.

وفجأة دوّت في أذنيه صرخة مرعبةٌ، تُصمّ السمعَ، فأحس برجّة تشنجيّة تهزّه، واحتضن رقبة الحصان، لكن رقبة الحصان كانت ترتجف أيضاً، فغدت الصرخةُ الفظيعة أشد هولاً. وفي بضع ثوان، لم يستطع فاسيلي اندريتش أن يعود إلى رشده وأن يتبيّن ما يجري. أما ما حدث فلم يتعدَّ الشيء التالي: إن الكميتَ أخذ يصهل بكل قوة رئتيه، لكي يتشجّع أو لكي يطلب النجدة. شتمه فاسيلي اندريتش «الموت لك، يا ملعون! كم أخفتني!». لكنه حتى بعد أن أدرك السبب الحقيقي لرعبه، لم يُفلح في التغلب عليه وكان يقول في نفسه: «يجب أن أفكر، يجب أن أهدأ» لكنه كان عاجزاً عن تمالك نفسه، ولم يكف عن حث دابته، دون أن يرى أن الريح صارت الآن في ظهره لا في وجهه كما كانت من قبل. أحسّ بالبرد والألم في كل أنحاء جسمه، ولاسيّما في الموضع الذي كان فيه جسمه على احتكاك بالسرج الصغير؛ وكانت يداه وقدماه ترتعد، وغدا تنفّسه لهاثاً. أحسّ أنه مُقبلٌ على الهلاك في قلب هذه الصحراء الثلجية المرعبة، لكنه لم يرَ أيَّ سبيل للنجاة.

وفجأة تهاوى الحصان تحته وغاص في ركام الثلج؛ وسقط على أحد جنبيه وهو يتخبّط، فوثب فاسيلي اندريتش إلى الثلج، وأوقع السرج الصغير الذي استند إليه وهو يقفز. وما إن خلّص الحصان حتى انتصب واستعدّ للوثب ووثب وثبتين وتوارى عن بصر صاحبه وهو يصهل ويجرَّ خلفه الجلَّ والجنفيصة. ظلّ فاسيلي اندريتش وحده، وقد غمره الثلج إلى منتصفه. أراد أن يندفع وراء دابته، لكن الثلج كان شديد العمق، وكانت فرويّتاه شديدتي الثقل حتى إنه لم يستطع أن يسير أكثر من عشرين خطوة وهو يترنّح، فتوقف وقد ضاقت أنفاسهُ. وقال في نفسه فجأة: «الغابة، وأجرة الأراضي، والحانوت، والحانتان، والمنزل ذو السقف الحديدي، والحظيرة والوارث... ماذا سيحلّ بذلك كله؟ ماذا جرى لي؟ هذا مستحيل!». وتذكّر بغتةً نبتات الأرطماسيّة التي كانت الريح تهزّها والتي مرَّ أمامها مرتين، فاستولى عليه رعبٌ شديد حتى لقد أبى أن يصدّق حقيقة ما يجري له... وتساءل: «أليس ذلك حلماً؟»؛ وأراد أن يستيقظ لكن هذا الثلج كان حقيقيّاً وهو يلسع وجهه، ويغطّي ثيابه، ويجمّد يده اليمنى التي أضاع قفازها، وكانت حقيقيّة تلك الصحراءُ التي يجد نفسه فيها الآن، وحيداً، مثل هذه الأرطماسيات، في انتظار موت محتّم، سريع وأخرق.

«أيتها الأم السماوية! أيها القديس نيكولا، يا نموذج التقشف!» وتذكّر قدّاس البارحة، في الكنيسة، والأيقونة بوجهها المسودّ في إطارها المذهب، والشموع التي كان يبيعها والتي كان المؤمنون يشعلونها أمام الأيقونة ثم لا يلبثون أن يعيدوها إليه وهي لم تكد تُمَسّ ليخبئها في درج صندوقه. وأخذ يرجو نيكولا هذا الذي تُنسب إليه المعجزات، واعداً إياه بإقامة الصلاة وإيقاد الشموع. لكنه ما لبث أن أدرك بجلاء، ودون أي شك، أن الأيقونة والشموع والكاهن والصلوات، كل ذلك كان جدَّ هامٍّ، وجدّ ضروري هناك، في الكنيسة،

لكن جميع هذه الأشياء لا يمكن أن تمدّ له يد العون هنا، وأنه لا علاقة، ولا يمكن أن تكون أيةُ علاقة بين تلك الشموع والصلوات وبين وضعه اليائس. وفكّر «لا ينبغي أن أدع نفسي تنهار. يجب أن أسير على آثار الحصان، لأنها ستختفي. ستقودني تلك الآثارُ، وسأدركه. المهمُّ ألا أسرع، وإلاّ أُنهِكتُ، وهلكتُ حينئذٍ». لكن مع أنه صمّم على السير ببطء، إلا أنه اندفع مسرعاً إلى الأمام وأخذ يركض، وهو لا يني يسقط وينهض ويعود إلى السقوط. ولم تكن آثار الحصان تُرى إلا لماماً، ولاسيّما حيث الثلج قليل العمق.

قال فاسيلي اندريتش في نفسه: «سوف أهلك، لن أعثر على آثار الحصان ولن أدركه». ولكنه رفع عينيه، وأبصر، في اللحظة نفسها، بقعةً سوداء. كان ذلك الكميتَ والزلاجةَ والعريشين مع المنديل. وقد وقف الكميت، والجنفيصة على ظهره بالعرض، لا في مكانه القديم، بل أقرب إلى العريشين، وكان يهزّ رأسه، وقد إلتفَّ اللجام على ساقه. والنتيجة أن فاسيلي اندريتش سقط في كومة الثلج نفسها التي غرق فيها مع نيكيتا من قبل، وأن الحصان عاد به إلى الزلاجة، وتركه على خمسين خطوةً منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-9-

عندما وصل فاسيلي اندريتش إلى قرب الزلاّجة، قبض على حافتها وظل هكذا واقفاً بعض الوقت، محاولاً أن يسترد أنفاسه وأن يهدأ. لم يكن نيكيتا في موضعه القديم؛ لكن فاسيلي اندريتش أبصر في الزلاّجة ما يشبه الكومة المغطاة بالثلج، فتكهّن بأنه نيكيتا. وتبدّد كليّاً رعبُ فاسيلي اندريتش.

وإذا كان مايزال يخشى شيئاً فهو بالضبط عودة ذلك الخوف الشرس الذي استولى عليه عندما تاه على وجهه وهو يمتطي حصانه، ولاسيما في تلك اللحظة التي وجد نفسه فيها متروكاً وحده في الثلج. كان ينبغي أن يحول بكل الوسائل دون عودة هذا الخوف، ولابدّ لتفاديه من العمل، من الانشغال بشيء ما. كان أول شيء عمله إذن هو أن يتّخذ موضعاً يكون ظهره فيه للريح وأن يفك فرويته. ثم إنه ما لبث، بعد أن استرد أنفاسه، أن نزع جزمته ونفّضها ليخلصها من الثلج الذي دخلها؛ وكذلك فعل بقفازه الأيسر؛ أما الأيمن فقد ضاع ولا سبيل إلى استرداده بعد أن دُفن تحت الثلج. ثم فكّ زناره، وشده وعقده تحت خصره كعادته عندما يخرج من حانوته ليفحص الحنطة التي يأتي بها الفلاحون ليبيعوه إياها...

وعندما أصبح هكذا جاهزاً للعمل، كان أول عمل عَرَض له هو أن يحررَ ساقَ الحصان. وهذا ما فعله فاسيلي اندريتش. ثم ربط الكميتَ بمقدّمة الزلاّجة، في الموضع السابق نفسه، وأراد أن يمرّ وراء الحصان ليعيد الحياصة إلى مكانها وكذلك السرج الصغير والجل. لكنه رأى في الوقت نفسه شيئاً يتحرّك في الزلاّجة: انتصب رأس نيكيتا من تحت طبقة الثلج التي كانت تغطّيه.

نهض نيكيتا، بجهد واضح، وقد استبدّ به البرد، وجلس وأخذ يحرك يده أمام أنفه بصورة غريبة وكأنه يطرد ذباباً. كان يحرك يده ويقول شيئاً. أدرك فاسيلي اندريتش أنه كان يناديه؛ حينئذٍ ترك الجلّ الذي كان يغطّي به الحصان، واقترب من الزلاّجة، وسأله:

- ما بكَ؟ ماذا تقول؟

قال نيكيتا بصعوبة، وبصوت متقطع:

- ها أنا ذا.... أموت. الذي لي بذمتك.... أعطه لولدي... أو لزوجتي. سيّان.

سأله فاسيلي اندريتش:

- ماذا... هل تجمّدت؟

قال نيكيتا بصوت باكٍ، دون أن يكف عن تحريك يديه أمام وجهه وكأنه يطرد الذباب:

- إنه الموت... وأنا أحسّ به. سامحني... باسم المسيح.

ظل فاسيلي اندريتش بضع ثوان ساكناً، صامتاً، ثم تراجع خطوةً واتخذ ذلك المظهر الحازم الذي يتّخذه عندما يشدّ على يد زبونه وهو يعقد صفقة رابحةً، فشمّر كمّيْ فرويته وأخذ يرمي بيديه الثلج الذي غطّى نيكيتا والزلاّجة. وبعد أن رمى فاسيلي اندريتش الثلجّ، فكّ فرويته ودفع نيكيتا إلى صدر الزلاجة، واستلقى عليه وغطاه هكذا بفرويته وبجسمه الملتهب. وبعد أن دسّ أطراف فرويته بين جوانب الزلاجة ونيكيتا، مع تثبيتها تحت ركبتيه، ظل مضطجعاً على صدره، ورأسه مستندٌ إلى مقدّمة الزلاجة.

لم يعد يسمع الآن لا حركات الحصان ولا صفير العاصفة، لكنه كان يُصيخ السمع إلى نَفَس نيكيتا. بقي نيكيتا في البدء ساكناً لا يُبدي حراكاً، بعض الوقت، ثم تنهّد وتحرّك تحركاً خفيفاً.

قال فاسيلي اندريتش:

- تلك هي حالنا! أنت كنتَ تقول: إنني أموت. ابق هادئاً، ادفأْ. أما نحن، فكذلك...

لكنْ ما كان أعظمَ دهشة فاسيلي اندريتش لأنه لم يستطع أن يُتمّ كلامه، لأن عينيه امتلأتا بالدموع وأخذ فكه الأسفل يرتجف بتشنّج. فكفّ عن الكلام، وحاول جاهداً أن يبتلع ما صعد إلى حنجرته. وفكرّ: «لقد خفتُ خوفاً شديداً، وضعفتُ ضعفاً شديداً».

بيد أن هذا الضعف لم يكن فقط خالياً من الازعاج، بل إنه أشعره، على العكس، بفرحٍ فريدٍ لم يستشعره قطّ من قبل.

كان يقول في نفسه: «أما نحن، فهكذا...» واستسلم لضرب من التحنّن الاحتفالي الشديد الخصوصية. وظل هكذا متمدداً بصمت زمناً طويلاً، ماسحاً عينيه بفرو فرويته، ضاغطاً بركبته اليمنى على طرف فرويته التي كانت الريحُ تحاول انتزاعه.

لكن رغبته بإشراك أحد الناس في فرحه استبدّ به بقوة حملتْه على القول:

- نيكيتا.

أجاب صوتُ نيكيتا من تحت فاسيلي اندريتش:

- يكفي، إني أحس بالدفء.

- نعم، يا أخي، الأمرُ هكذا. كدتُ أهلك. كنت سأموت من البرد، وأنتَ أيضاً...

لكن فكيّه عادا إلى الارتجاف وامتلأت عيناه بالدموع. ولم يستطع أن يتمّ كلامه.

وفكر: «ليس هذا بذي بال. إني أعرف جيداً ما أعرفه». صمت، وظل طويلاً هكذا.

إن دفء جسم نيكيتا المتمدد تحته، والفروية التي غطّت ظهره بعثا فيه الحرارة؛ بيد أن يدي فاسيلي اندريتش اللتين كانتا تمسكان أطراف الفروية، وقدميه اللتين كان الهواء يكشفهما دون انقطاع، أخذتا تبردان. ويده اليمنى بخاصة بردت، وكانت مكشوفة. لكنه لم يكن يفكر لا بقدميه ولا بيديه. لم يفكر إلا بتدفئة الرجل الذي كان مضطجعاً تحته.

رمى الحصانَ بنظرته عدة مرات، ورأى أن ظهر الحيوان كان مكشوفاً، إذ رمت الريح أرضاً بالجنفيصة. فقال في نفسه: إنه كان ينبغي أن ينهض ويغطي ظهر الحصان. لكنه لم يستطع أن يصمّم على ترك نيكيتا، ولو لبرهة، وأن يشوش هذا الفرح الذي كان فيه. لم يعد يحس الآن بأيّ رعب. قال في نفسه وهو يفكّر في الطريقة التي يُدفئ فيها نيكيتا، وهو يشعر بشعور الرضا نفسه الذي كان يشعر به وهو يمتدح مشترياته ومبيعاته: «لا خوف عليه، ولن تخطئه الحرارة!» انقضتْ هكذا ساعةٌ، ثم اثنتان، ثم ثلاث. لم يلاحظ فاسيلي اندريتش سير الزمن. في البدء رأى في خياله العاصفةَ، والعريشين المنصوبين، والحصان بطوقه؛ كان يفكّر أيضاً في نيكيتا المضطجع تحته.

ثم امتزجتْ بهذه الصور ذكريات: تذكّر عيدَ القرية، وزوجته، وضابط الشرطة، ودرْجَ الصندوق الذي كان يخبئ فيه الشموع، والذي تمدّد الآن نيكيتا تحته. ثم رأى فلاحين يشترون ويبيعون جدراناً بيضاء، وبيوتاً سقوفُها من حديد وتحتها نيكيتا أيضاً. ثم اختلط كلُّ شيء؛ وامتصّتْ الصورةُ الصورة الأخرى، وكما أن ألوان قوس قزح المختلفة إذا تمازجت أعطت اللون الأبيض، تلاشت جميعُ انطباعاته حين اختلط بعضُها ببعض، ونام.

نام طويلاً نوماً لا رؤى فيه. لكنه حَلمَ حلماً عند الصباح. رأى نفسه في الكنيسة واقفاً قرب الدرج حيث كان يبيع الشموع. وتشتري منه امرأةُ «تيخون» شمعةً بخمسة كوبيكات لتشعلها أمام الايقونة في يوم عيدها. وينوي أن يأخذ الشمعة ويعطيها إياها، لكن يديه اللتين ضمهما في جيبه لا تطاوعانه. وينوي أن يعد المال، لكن قدميه لا تطيعانه، وتلتصق خفّافتُه الجديدة اللامعة بالأرض؛ ويتعذّر رفعُ قدميه. ثم إن الطاولة لم تعد طاولةً وإنما أصبحت فجأةً سريراً؛ ويرى فاسيلي اندريتش نفسه مضطجعاً على صدره فوق هذا السرير، في منزله. هو ممدّد على سريره لا يقدر النهوض؛ بيد أن عليه أن ينهض لأن ضابط الشرطة ايفان ماتفيتش سيأتي ليذهبا معاً كي يعقدا صفقة الغابة، أو

لعله سيأتي من أجل إعادة جنفيصة الكميت إلى مكانها؟ ويسأل فاسيلي اندريتش امرأته: «ماذا، يا نيكولايفنا، ألم يأت بعد؟» وتجيب امرأته: «لا، إنه ليس هنا». ويَسمع أحدهم يقترب من مطلع الدرج. لعله هو! لا، إنه يمرّ دون أن يقف. ماذا، نيكولايفنا، ألم يأتِ بعد؟

- «لا». وهو مضطجع على سريره لا يستطيع النهوض، وهو ينتظر؛ وهذا الانتظار مشوبٌ بالخوف والفرح. وفجأة، يتمّ الفرح. ويصلُ الذي كان فاسيلي اندريتش ينتظره: لا ايفان ماتفيتيتش، ضابط الشرطة، بل غيره، وهو عينه الذي كان فاسيلي ينتظره. إنه يصل ويناديه؛ والذي يناديه هو نفسه الذي قال له قبل قليل أن يتمدّد على نيكيتا لكي يدفئه. ويفرح فاسيلي اندريتش فرحاً عظيماً أن يأتي ذاك نفسه لإحضاره فيهتف بفرح: «أنا آتٍ». وهذا الصياح يوقظه. إنه يستيقظ، لكنه يستيقظ مختلفاً كليّاً عمَّا كان عليه حين نام. ويريد أن ينهض، فيعجز عن النهوض، ويريد أن يحرك يده فيتعذّر عليه ذلك أيضاً. ويريد أن يحرك رأسه فلا يقدر أيضاً. ويدهشه ذلك كثيراً لكنه لا يحزن البتّة. ويتذكر أن نيكيتا مضطجع تحته، وأنه دافئ وأنه حيّ؛ ويُخيّل إليه أنه، هو فاسيلي اندريتش، ليس سوى نيكيتا، وأن نيكيتا هو فاسيلي اندريتش، وأن حياته هو ليست فيه وإنما هي في نيكيتا. إنه يستمع فيسمع تنفّس نيكيتا بل يسمع غطيطاً خفيفاً، فيقول في نفسه بفرح الظفر: «نيكيتا يحيا، وهذا يعني أنني أنا نفسي أحيا».

ويتذكّر ماله، وحانوته، وبيته، ومبيعاته ومشترياته وملايين آل ميرونوف. ويصعب عليه أن يفهم لم شغل فاسيلي بريكونوف نفسه بكل هذه الأشياء. قال في نفسه وهو يفكر في فاسيلي بريكونوف: «نعم، إنه لم يكن يعلم ما حقيقة الأمر. لم يكن يعلم ما أعلمه الآن. لا مجال للخطأ الآن. إني أعرف حقيقة الأمر الآن». ومن جديد، سمع نداء الذي هتف به قبل حين. فيصرخ كيانُه كله وهو مُفعمٌ بالاستبشار الرقيق: «أنا آتٍ، أنا آتٍ!» ويحسّ أنه حرٌّ وأنْ لا شيء يستبقيه بعد الآن.

وبعد ذلك لم يعد فاسيلي اندريتش يرى أو يسمع أو يحس شيئاً في هذا العالم.

استمرت العاصفةُ. كان الثلج يرقص في زوابع سميكة ويغطي جسد فاسيلي اندريتش، والكميتَ المتجمّد الذي كانت فرائصه ترتعد، والزلاجة التي غمرها الثلج إلى منتصفها، فيها كان نيكيتا ينام دافئاً تحت سيّده الميت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

--10

استيقظ نيكيتا، عند الصبح. أيقظه إحساس بالبرد الذي استولى عليه مرة أخرى. وكان قد رأى في الحلم نفسه يقودُ إلى المطحنة طنبراً مُحمَلاً بالحنطة، وأنه غاص في الوحل أثناء عبوره الساقية. ورأى نفسه تحت الطنبر الذي حاول رفعه وهو يقوّس ظهره. لكنْ، يا للغرابة؟ فالطنبر لا يتحرك؛ وكأنه ملتصق بظهره، وهو لا يستطيع أن يرفع الطنبر ولا أن يخرج من تحته، والطنبر يسحق ظهره. يا اللّه! ما أبرده! يجب عليه حتماً أن ينهض. قال للذي يسحق له ظهره تحت الطنبر: «كفاك، هيّا، ارفع الأكياس!» لكن الطنبر تزداد برودتُه شيئاً فشيئاً: وهو يسحقه. وفجأة أحسّ إحساساً غريباً: فيستيقظ ويتذكّر كلّ شيء. لم يكن الطنبر المتجمّد سوى سيّده الراقد فوقه. والصدمات التي أحسّ بها جاءت من الكميت الذي صدم بحافره الزلاجة مرتين.

هتف نيكيتا بحذر وقد أحسّ بالحقيقة وقوّس ظهره:

- اندريتش! اندريتش!

لكن اندريتش لا يجيب، وقد بلغ صدرُه وساقاه من الصلابة والثقل والبرودة ما في كرة من الحديد المسبوك.

فكّر نيكيتا: «لابد أنه ميت! ليكن اللّه معه!»

ويدير نيكيتا رأسه، ويثقب بيده ثقباً في الثلج ويفتح عينيه. كان الجو صاحياً. والريحُ ماتزال تصفر بين العريشين، والثلج يتساقط كما كان من قبلُ، مع هذا الفرق وهو أنه لم يعد يلطم حافات الزلاجة، لكنه كان يغمر بصمت الزلاّجة والحصانَ الذي كفّ عن الحركة ولم يعد يسمع تنفّسه. قال نيكيتا في نفسه: «لا بد أنه مات أيضاً». وبالفعل فإن الكميت الذي بذل آخر جهدٍ له ليقف على قوائمه والذي تصلّب تماماً من جراء البرد، قد صدم الزلاجة بحوافره، فأيقظ نيكيتا.

«يا إلهي! أيها الأب السماوي! أنا أيضاً سأدعى إليك! لتكنْ مشيئتك المقدّسة! الأمرُ مؤلم، مع ذلك. لكن الإنسان لا يموت مرتين على شرط ألا يمتدّ ذلك!».

ويُدخل يده من جديد، ويُغمض عينيه، ويُغفي مقتنعاً هذه المرة بأنه سيموت حقّاً.

في اليوم التالي فقط، في ساعة الغداء، أخرج الفلاحون فاسيلي اندريتش ونيكيتا من تحت الثلج، على بعد تسعين ذراعاً عن الطريق وعلى نصف فرسخ من القرية.

كان الثلجُ قد غطّى الزلاجة تماماً، لكن العريشين والمنديل كانت ما تزالُ تُرى. وكان الكميتُ الذي بلغ الثلج منتصف صدره واقفاً، وقد ابيضَ، ودخل رأسه الناحل في كتفيه، وامتلأ منخراه بالثلج، وكذلك عيناه، وكأنهما اغرورقتا بدموع متجمّدة. ولقد هزل، في ليلة واحدة هزالاً شديداً حتى إنه لم يبق فيه سوى العظام والجلد.

كان جسد فاسيلي اندريتش متصلّباً مثل قطعة من اللحم المجمّد. وعندما رُفع ظلّت الساقان منفرجتين انفراجاً واسعاً كما كانتا وهو ممدّد فوق نيكيتا. وكانت عيناه اللتان كعيني البازي، المدّورتان والجاحظتان، متجمدتين، وحُشيَ فمُه، تحت شاربيه المدبّبين، بالثلج.

أما نيكيتا فظل حيّاً، مع أن جسمه تجمّد في مواضع منه، وعندما أُوقظ تخيّل أنه كان ميتاً وأن ما يقع له يجري في العالم الآخر. وعندما سمع صرخات الفلاحين الذين أزالوا الثلج عن الزلاجة ورفعوا جسد فاسيلي اندريتش، أدهشه لأول وهلة أن توجد، في العالم الآخر، أجسادٌ، وأن الذين فيه يتخاصمون كما يتخاصمون في هذا العالم. لكنه عندما أدرك أنه ما يزال على الأرض، اغتمّ أكثر مما سرّ، ولاسيما عندما أحس أن أصابع قدميه تجمّدت.

قضى نيكيتا شهرين في المستشفى. وقُطعت أصابعه الثلاث؛ وشفيت أصابعُه الأخرى، واستطاع أن يعود إلى العمل. عاش بعد ذلك عشرين سنة، واشتغل أولاً خادماً في مزرعة؛ وفيما بعد، عندما أصبح عجوزاً، اشتغل حارساً ليلياً. وقد مات في هذه السنة، في بيته، كما كان يرغب، تحت الايقونات، وفي يده شمعة. وقبل أن يموت طلب صَفْح العجوز، وودّع ابنه وأحفاده؛ ومات سعيداً بصدق لأنه خلّص ابنه وكنّته من رجلٍ عيالٍ عليهم، ولأنه يهجر نهائياً هذه الحياة التي سئم منها إلى حياة أخرى كانت تبدو له، كلما انقضت السنون، أكثر جلاءً وأكثر جذباً.

أهو أفضل أو أقل فضلاً في ذلك العالم الذي استيقظ فيه بعد موته النهائي؟ وهل شعرَ بالخيبة أم وجد هناك ما كان ينتظره أو يرجوه بالذات؟ سنعلم ذلك جميعاً، عمّا قريب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

-1-
-2-
-3-
-4-
-5-
-6-
-7-
-8-
-9-
-10-

Notes

[1←] عيد القديس نيقولا الشتوي: يعيَّد، في روسيا، بعيد القديس نيقولا مرتين في السنة: في 9 أيار وفي 6 كانون الأول.

فاسيلي: الشكل اليوناني الجديد والروسي للاسم «باسيل». [2←]

[←3]
الجمعية التجارية الثانية: كان أغنى تجار المدن يشكلون بحسب أنظمة بطرس الأكبر لسنة 1719، الجمعية الأولى والجمعية الثانية.

إيساي: الصيغة الروسية للاسم «أشعيا». [4←]

سيومكا: اسم الحصان. [←5]

[←6] كتاب بولسون: بولسون (1824-1898) مربٍّ روسي مؤلف كتب مدرسية للمدارس الابتدائية، ومحرر مجلة «المعلم» التي ظهرت بين 1862-1871.